تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية

تأليف
الإمام جلال الدين السيوطي
(٨٤٩ ـ ٩١١ هـ)

دار القلم العربي

تأييد الحقيقة العلية
وتشييد الطريقة الشاذلية

بسم الله الرحمن الرحيم

تأييد الحقيقة العلية
وتشييد الطريقة الشاذلية

ألّفه
الإمام السيوطي
٨٤٩ - ٩١١ هـ

حققه وعلّق عليه
الدكتور محمد حسني مصطفى

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1422 هـ - 2002 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

بسم الله الرحمن الرحيم

(فلـله الحمد ربِّ السموات ، وربِّ الأرض ، ربِّ العالمين : وله الكِبْرياء في السـموات والأرض ، وهـو العزيز الحكيم) (وهو الله لا إله إلّا هو ، وله الحمدُ في الأولى والآخـرة ، وله الحُكمْ ، وإليه ترجعون) (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) "ومَنْ عَزاه إلى عِرقٍ فقد زَلّ ، ومَنْ ضَمِنَ الوفاء بمدحه فقد هذَى ، قد فاتَ قدْر الوُصّاف عن وصفه ، وحادتْ عن سبيله الأمثال . يُعَفّي حُسْنُه آثارَ كل حُسْن ، ويحقـر كـرمُه نفاسةَ كلّ كرم ، ومتىَ همَّ بتأمُّله أحدٌ من الحافّين حول بساطه غَضّ الدَّهَشُ طرفَه فآب حسيراً ، يَكادُ طَرْفُه يُختَطَفُ قبل النظر إليه ، وكان حُسْنُه حجابَ حُسْنِه ، وكان ظهورُه سبب بطونه ، وكان تجلّيه سبب خفائه "

وصلى الله على سيّدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه . وسلّم .

* * *

قـال ابـن أبي حاتم : حدّثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدّثني الليث ، حدّثـني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما حمل نوح في السفينة من كلٍ زوجين اثنين ، قال أصحابه : – وكيف نطمـئنّ ؟ أو كيف تطمئن المواشي ومعنا الأسد ؟ _ فسلّط الله عليه الحمّى ، فكانت أوّل حمّـى نزلـتْ في الأرض ثمّ شكَوا الفأرة ، فقالوا : الفويسقة تُفْسِدُ علينا طعامنا ومتاعـنا . فـأوحى الله إلى الأسـد فعطـس ، فخرجت الهرّة منه ، فاختبأت الفأرة منها " . (١)

(١) : ابن كثير : قصص الأنبياء (دار الفكر) ٩٥ .

هذا حديث ضعيف الإسناد ، مُرْسل ، لكنّه يدلّ _ في جُمْلة دلالاته _ على أنّه ما تطرّف شيء ذات اليمين أو ذات الشمال ، إلاّ سلّط الله عليه مَنْ يردّه ، أو يأمره أن يرتدّ ، إلى سواء السبيل .

وهذا ما وقع في التصوّف ، فإنّ قوماً دخلاء عليه ، ما هم من أهله ، غالَوْا فيه ، وانحرفوا به ، وبدّلوا من معالمه ، فسلّط عليهم " سلفيّة " ، وفقهاء علماء ، أخذوا على أيديهم ، وكفكفوا من غُلَوائهم ، وتمادَى فريق من منتقديهم ، فحمَل على أصل التصوّف ، فصاروا هم بدورهم متطرّفيْنَ مغالين .

والخير كلُّه في معتدلي المسلمين ، أيّاً كان مَشْرَبُهم ، الذين يهمّهم تطهير قلوبهم ، ومجاهدة أنفسهم ، ومناصرة الدين الحنيف ، الأغرّ ، البَيِّن .

* * *

وهذا الكتاب الذي أُخرجه للإمام السيوطي " تأييد الحقيقة العلية ، وتشييد الطريقة الشاذلية " هو محاولة طيّبة مباركة ، مُنصِفة ، تُوْضح ما للصوفيّة وما عليهم . فهو يلتمس الأدلّة الشرعيّة لبعض قضايا يَظنّ ظانّون أنْ لا أصل لها ، مثل خِرْقة المتصوّفة ، وأصل طريقتهم ، وبعض مصطلحاتهم واعتقاداتهم . وهو يحمل _ في الوقت نفسه _ بقوة ، ويُبدئ ويعيد ، دون ملل ، على القائلين بوحدة الوجود ، أو الحلول ، أو الإباحة ، أو الاعتماد على أيّ خاطر ، أو المترخّصين المسرفين في الغناء .

* * *

والإمام السيوطي من مواليد القاهرة لعام ٨٤٩ هـ ، واسمه عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر السُّيوطي ، وهو عالم عصامي موفّق نشأ يتيماً ، إذْ مات أبوه – وكان عالماً يحبّ الكتب – وهو في الخامسة من عمره ، فحرسته عينُ الله تعالى ،

وأكـــب على حلقات العلوم ، يعبّ من معينها ، وقد ألمع تلميذه الداودي إلى واحد وخمســـين شيخاً من شيوخ السيوطي ، وصار جلال الدّين يبثّ علومه التي جمعها من حديث وفقه _ وكان شافعياً _ وتاريخ وأدب ، وترقّى في المناصب حتى أسندتْ إليه فــتوى الديار المصرية . ولكنّه منذ بلغ الأربعين من عمره اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في مــــنــزله بروضة المقياس (بين فَرْعين للنيل) ، منــزوياً عن الناس ، فألّف أكثر كتـــبه ، وهي تناهز ستمئة كتاب ، وما برح في مُعْتَزَلِه يؤلّف ويصنّف حتى وافته المنيّة سنة ٩١١ هـــ . (١)

* * *

والإمـــام الشّاذلي الذي ينتمي السيوطي إلى طريقته ويحرص على تشييدها في هذا السِّفر هو علي بن عبد الله الشاذليّ المغربي (٥٩١ _ ٦٥٦ هـــ) أبو الحسن ، ولــد في بـــلاد غِمارة بريف المغرب وتفقّه وتصوّف بتونس ، وسكن " شاذلة " قرب تونس ، فنسب إليها ، ثم رحل إلى الإسكندرية ، وكان ضريراً . وكتب سيرته وطريقة ابن عياد (أحمد بن محمد) : " المفاخر العليّة في المآثر الشّاذليّة " وهو مطبوع .

أســـأل الله تعـــالى أن ينفع بهذا الكتاب أولي الألباب ، متحرِّي النَّصفة عَبَدَةَ الحقّ ، المتسمِّيْنَ بالوسَطيّة والاعتدال ، وأنْ يزيدَهم .

محمد حسني مصطفى

---

(١) انظـــر طائفـــة مـــن كتـــبه ، ومصـــادر الـــتعريف به : معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (دار إحياء التراث العربي) ١٢٨/٥ . والأعلام (ط٤) ٣٠١/٣

مقدّمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) [1]

اعلـــم – وفّقـــني الله وإياك – أنّ علم التّصَوّف في نفسه علْمٌ شريف ، رفيعٌ قَدْره ، سنيٌّ [2] أمره ، لم تزلْ أئمّة الإسلام وهُداةُ الأنام قديماً وحديثاً يرفعون مناره ، ويجلّــون مقداره ، ويعظّمون أصحابه ، ويعتقدون أربابَه [3] فإنّهم أولياء الله وخاصّتُه من خَلْقه بعد أنبيائه ورسله .

غيرَ أنّه دخل فيهم قديماً وحديثاً دخيلٌ تشبّهوا بهم ، وليسوا منهم ، وتكلّموا بغير علم وتحقيق ، فزلُّوا ، وضلُّوا ، وأضلُّوا . فمنهم من اقتصر على الاسم ، وتوسّل بذلــك إلى حطام الدنيا ، ومنهم مَنْ لم يتحقّقْ ، فقال بالحُلول وما شابهه ، فأدّى ذلك إلى إساءة الظّنّ بالجميع .

وقد نبّه المعتَبُرون منهم على هذا الخطب الجليل ، ونصُّوا على أنّ هذه الأمور السّيّئة من ذلك الدخيل .

وقـــد وضعْتُ هذه الكُرّاسة ، وسمَّيْتُها " تأييد الحقيقة العلِيّة وتشييد الطريقة الشّاذليّة " مرتّبة على فصول . جعلها الله خالصة لوجهه ، ورزقنا الصدق في المقاصد ، والسلامة من الخطأ والخَطَل [4] وشبِهْه .

---

(١) اقتباس من الآية (٥٩) من سورة النّمل .

(٢) سَنِيّ : ذو سناء ورِفْعة وقَدْر .

(٣) يثقون بأن أصحاب التصوّف واصلون ، وأنهم على شيء .

(٤) الخطل : الفساد

(١)

فصــــــــل

الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار

*　　*　　*

(٢)

فصــــــــل

مـــنها ما أخرجه الشيخان عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّ موسى قال للخَضِر (عليهما السلام) : (هل أتّبِعُك على أن تعلّمني مّما عُلّمْـــتَ رشْداً ؟ قال : إنّك لن تستطيع معي صبراً) . يا موسى إني على عِلْم من علم الله علّمنـــيه لا ينـــبغي لـــك أنْ تعـــلمه ، وأنت على عِلْم علّمكَ الله لا ينبغي لي أن أعلمه " [١] أي جميعه . وكذا قوله : " لا ينبغي لك أن تعلمه " أيْ جميعه . قال الحافظ ابـــن حجر : وتقدير ذلك معتبر ، لأنّ الخضر كان يعرف من الحُكْم الظاهر ما لا غنى للمكلّف عنه ، وموسى كان يعرف من الحُكْم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي .

---

(١) الـــبخاري : التفسير / الكهف ، باب (وإذْ قال موسى لفتاه) برقم ٤٤٤٨ وما بعده ، وفي العلم ، باب ما يستحبّ للعالم إذا سئل : أي الناس أعلم ؟ رقم ١٢٢ . ومسلم : الفضائل ، باب : من فضائل الخضر عليه السّلام ، رقم ٠٢٣٨٠ .

وقال الشيخ سراج الدين البُلْقيني [1] في الحديث : هذا قد يُشكل ، فإن العلم المذكور في الجهتين كيف لا ينبغي علمه ؟ قال : وجوابُ هذا الإشكال أنّ علم الحقائق والكشوف ينافي علم الظاهر ، فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظّاهر الذي هو مكلّف به أنْ يعلم الحقائق ، للتّنافي ، ولا ينبغي للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظّاهر الذي ليس مكلفاً به الذي ينافي ما عنده من الحقيقة .

قال : ويمكن حمل العلم على معنى تنفيذه . والمعنى : لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به ، لأنَّ العَمَلَ به مُنافٍ لمقتضى الشرع ، ولا ينبغي لي أن أعْلَمَه فأعمل بمقتضاه ، لأنّه منافٍ لمقتضى الحقيقة .

قال : فعلى هذا لا يجوز للوليّ التابع للنبيّ إذا اطّلع على حقيقة أنْ ينفّذ ذلك بمقتضى الحقيقة ، وإنما عليه أنْ ينفّذ الحكم الظّاهر . انتهى .

* * *

---

(1) أبو حفص عمر بن رسلان (٧٢٤ – ٨٠٥ هـ) مجتهد حافظ للحديث ، ولي قضاء الشّام . مولود في بُلقينة . قال ياقوت : " بُلقِينة : بالضمّ ، وكسر القاف ، وياء ساكنة ، ونون : قرية من حَوْف مصر ، من كورة بَنا " [معجم البلدان (صادر) ١/ ٤٨٩]

(٣)

فصـــــل

منها حديث عمر رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السَّلام عن الإحسان ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكنْ تراه فإنّه يــراك " أخرجه الشيخان (١) قال الهرويّ (٢) في منازل السّائرين : هذا الحديث إشارة جامعــةٌ لمذهـــب هذه الطّائفة . قال شارحه : لأنّ أصل هذه الطّريقة الخاصّة كمالُ المعــرفة ودوام المراقــبة لــلحقّ ســبحانه في الحركات والسّكنات ، بل في الأنفاس والــلحظات ، حــتى يستولي سلطان الحقّ على القلوب ، فيضمحلّ ما تعلّقتْ به أو سكنتْ إليه من الأحوال والخطوب .

* * *

(١) مســلم : الإيمــان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ' رقم ٨ عن عمر رضي الله عنه ، ورواه في الباب نفسه (برقم ٩ و ١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه . ورواه الإمام البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه في الإيمان باب سؤال جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمــان والإســلام والإحسان وعلْم الساعة ، رقم ٥٠ وفي التفسير / سورة لقمان ، باب (إن الله عنده علم السّاعة) ٤٤٩٩ .

(٢) أبــو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري (٣٩٦ – ٤٨١ هــ) شيخ خراسان في عصره ، من كبار الحنابلة ، لغويّ محدّث عالم بالتاريخ ، مناصر للسّنّة ، داع لها . من مصنفاته الذائعة " منازل السائرين " وهو مطبوع .

(٤)

فصـــــل

ومـــنها مـــا أخرجه الطبسي في ترغيبه قال : أنبأنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن أنبأنا أبو علي حامد بن محمد الرفا الهروي أنبأنا نصر بن أحمد البرزجاني ، حدّثنا عبد السلام بن صالح ، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة رضـــي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : " إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلاّ أهل العلم بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكرْه إلاّ أهل الغِرّة بالله " (١) .

هـــذا إسنادٌ ضعيف ، عبد السلام بن صالح هو أبو الصَّلْت الهروي من رجال ابـــن ماجه ، كان رجلاً صالحاً لكنّه شيعي ، وقد اختُلف فيه فقال أبو حاتم : لم يكن عـــندي بصَـــدُوق . وضرب أبو زرعة على حديثه . وقال العقيلي : رافضي خبيث . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال ابن عديّ : مُتّهم . وقال الدار قطني : رافضي متّهم بوضع حديث : " الإيمان إقرار بالقول " (٢) .

---

(١) إســـناده ضعيف ، رواه الديلمي في مسند الفردوس برقم ٧٩٩ والغزالي في إحياء علوم الدين ١/ ٢٠ وقال الحافظ العراقي : رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين التي له في التصوّف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد ضعيف ورواه المنذري في الترغيب والترهيب في العلم ، فصـــل : العـــلم علمان ، برقم ١٤١ ، والهندي في كنـــز العمال : العلم ، ١٠/ ٢٨٩٤٢ .
المكنون : المخبأ المستور . الغِرّة : الغفلة .

(٢) تـــاريخ بغـــداد للخطب البغدادي (بيروت) ١١ / ٥١ وميزان الاعتدال للذهبي (مصر — الحلـــبي) ٥٠٥١ ، والظـــر كنـــز العمال ١٣٦٢ واللآلىء المصنوعة للسّيوطي(دار الكتاب العربي) ١ / ١٨ و ١٩ .

وقال العباس الدورقي : سمعت يحيى يوثّق أبا الصَّلْت . وقال محمد بن محرز عن يحيى : ليس ممَّنْ يكذب . وأثنى عليه أحمد بن سيار في تاريخ مرو ، وقال كان يعرف بالتَّشيُّع فناظرْته لاستخراج ما عنده فلم أره يُفْرط ، رأيتُه يقدّم أبا بكر وعمر ، ولا يذكر الصحابة إلا بالجميل ، وقال لي : هذا مذهبي الذي أدين الله به . قلت : فالحاصل أنّ حديثه في مرتبة الضّعيف الذي ليس بالموضوع .

* * *

وقد أورد القطب القسطلاّني هذا الحديث في كتابه في التَّصوّف ، وقال : إنّ له شاهداً مِنْ مُرْسل سعيد بن المسيّب ، وأورد فيه حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : " العلم علمان ، فعلم ثابت في القلب فذاك العلم النافع ، وعلم في اللسان ، فذلك حجّة الله على عباده " .

وهذا الحديث أخرجه أبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس (1) .

* * *

(1) الترغيب والترهيب : كتاب العلم ١ / ١٣٥ برقم ١٤٠ وقال الحافظ المنذري: رواه أبو منصور الديلمي في مسندالفردوس ، والأصبهاني في كتابه ، ورواه البيهقي عن الفضيل بن عياض من قوله غير مرفوع . وهو في مسند الفردوس برقم (٤١٩٤) وفي الترغيب والترهيب للأصبهاني (٢١٩٢) وفي العلل المتناهية لابن الجوزي (الهند) ١ / ٨٣ وفي إحياء علوم الدين ١ / ٥٩ وقال الحافظ العراقي : أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البرّ من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح . وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر رضي الله عنه بإسناد جيّد [المغني عن حمل الأسفار ١/ ٥٩] فإعلال ابن الجوزي مردود . والحديث حسن الإسناد . وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١٨٢٥ وفيض القدير للمناوي ٤ / ٣٩١ وكنز العمّال ٢٨٦٦٧ وتاريخ بغداد ٤ / ٣٤٦ .

وأورد الهـــرويّ في مـــنازل السائرين بسنده من طريق الجنيد عن السَّرِي عن معـــروف الكـــرخي عـــن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه عن عليّ رضي الله عنه مـــرفوعاً : " طلبُ الحقّ غُرْبة " . وهذا الحديث أخرجه الديلميّ في مسند الفردوس . بسند مسلسل بالصوفيّة [1] .

وأورده القطـــب القسطلاّني في كتابه ، وقال : يحتمل أن يريد بقوله :" طلب الحقّ " : الله سبحانه وتعالى ، فإنّه هو الحقّ المُطْلَق ، ويُطلق على غيره بلواحق وقيود ، وَبـــــ : " الغربة " : البعد عن حظوظ النفس وشهواتها ويحتمل أن يريد ما هو ثابت وطلبه مشروع من الأعمال المقرّبة ، وبِـــ " الغربة " القِلّةَ وعزّة الوجود لعدم المساعد عـــلى حصـــول المقصود ، كما في الحديث الآخر : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ ، فطوبى للغرباء " [2] .

---

(1) أحمـــد بن سهل السَّرّاج الصوفي عن حمزة بن محمّد الجعفريّ عن عبد الواحد بن أحمد الهاشمي عن أحمد بن منصور الواعظ عن علاّن بن زيد عن جعفر بن محمد الصّوفي عن الجنيد هو أيضاً في كـــنـــز العمال (لواحق كتاب الإيمان ، فصل : قلّة الإسلام وغربته) ١ / ١١٩٦ وتاريخ دمشـــق لابن عساكر (تهذيبه) ٤ / ٤٥٤ والفوائد المجموعة للشوكاني ٢٥٦ والدرر المنتثرة في الأحاديـــث المشتهرة للسيوطي ١٠٨ والسلسلة الضعيفة ٨٥٦ وتذكرة الموضوعات ٢٠٠ وقـــال : مسلـــل بطريق الصوفية . والجامع الصغير ٥٢٧٠ ورمز فيه إلى ضعفه . وقال الذهبي في ميزان الاعتدال بوضعه [كشف الخفاء ١ / ٥٤ الحديث ١٦٦٢] .

(2) مســـلم : الإيمان ، باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً ، رقم ١٤٥ . والترمذي : الإيمان ، الباب (١٣) : باب ما جاء أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، رقم ٢٦٣١ وابن ماجه : الفتن ، باب بدأ الإسلام غريباً ، رقم ٠٣٩٨٦ وطوبى : الطّيب من كل شيء ، والجنة ، واسم شجرة في الجنة . وللحديث تاويلان . أحدهما أنّ الإسلام بدأ في قلة من الناس ، ثم انتشر ، ثم سيعود أهله قليلين كالغرباء . والاخر : أنه كما كان قليلاً أهله أول مرّة ثم كثروا فسوف ينهضون من جديـــد ، وتمرّ عليهم حالة قلة أو غربة ، ثم يبلغون المجد ، فلا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله الإسلام .

وأورد القطب أيضاً قول عيسى عليه السلام : العلماء ثلاثة : عالم بالله وبأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله .

وأورد عن سفيان الثوري قال : العلماء ثلاثة :

ــ عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله .

ــ وعالم بالله ، عالم بأمر الله ، يخشى الله . فذلك العالم الكامل .

ــ وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، لا يخشى الله . فذلك العالم الفاجر .

* * *

(٥)
فصـــــل

ومنها ما أخرجه الديلمي في مسند الفِرْدَوْس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسّـــان عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة مرفوعاً : " سألْتُ جبريل عن عـــلم الـــباطن : مـــا هـــو ؟ فقـــال: قال الله : هو سرّ بيني وبين أحبّائي أودعه في قلوبهم " [(١)] .

وأخـــرجه مـــن وجه آخرَ عن أحمد بن غسّان به ، بلفظ : سألت جبريل عن الإخلاص : ما هو ؟ " [(٢)] وهو مسلسل بسؤال كلّ راوٍ لشيخه عن ذلك .

وقـــال الذهبي في الميزان : عبد الواحد بن زيد البصريّ الزاهد شيخ الصوفية وواعظهـــم [(٣)] ، لَحِـــق الحســـن [(٤)] وغيره ، ضعَّفه النُّقّاد ، فقال ابن معين : ليس بشـــيء . وقال البخاري : تركوه . وقال الجوزقاني : سَيِّئ المذهب ليس من معادن الصّدْق . وقال الذهبي : له مناكير مع أنّه كان مجاب الدعوة ، حدّث عنه وكيع وأبو ســـليمان الـــدّاراني ، وقال إنّه صلّى الصّبْحَ بوضوء العتمة أربعين سنة . انتهى . وفي رجال الإسنادَيْن سواه مَنْ لا يعرف .

* * *

---

(١) إتحـــاف السّادة ١٠ / ٤٤ وكشف الخفاء ٢ / ٨٩ وقال إسماعيل العجلوني : قال الحافظ ابن حجـــر : موضـــوع ، ولم يَلْقَ الحسن حذيفة . ونقل السيوطي في أوائل خطبة كتاب الطبّ النبوي أنه من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه " وتذكر الموضوعات ١٨ .

(٢) إتحاف ١٠ / ٤٥ .

(٣) انظـــر فيه الطبقات الكبرى للشعراني (دار الفكر) ص ٤٦ وجامع كرامات الأولياء ليوسف النبهانيّ (الفكر) ٢ / ٢٧١ .

(٤) هو الحسن بن يسار البصري المتوفي سنة ١١٠ هـــ ، رضي الله عنه .

(٦)
فصـــل

أخـــرج الفـــريابي في تفسيره عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : " لكل آيةٍ ظهر وبطن " [١] قال ابن النقّيب في تفسيره : ظهر الآية ما ظهر مـــن معاليها لأهل العلم بالظاهر ، وبطنها ما تضمنّته من الأسرار الّتي أطْلع الله عليها أرباب الحقائق [٢] .

وأخـــرج أبو نُعَيْم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف ما منها حرفٌ إلاّ له ظهر وبطن ، وإنّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن . وأخرجه أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنّا نتحدث أنّ الـــنبيّ صلى الله عليه وسلم عهِدَ إلى عليّ رضي الله عنه سبعين عهداً لم يعهدْه إلى غيره . وسيأتي لهذا مزيد كلام في فصل مستقلّ آخر الكتاب [وانظر الفصل الثامن]

* * *

---

(١) لفظـــه في الطبراني : " أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكلّ حرف منها ظهر وبطن ، ولكل حـــرف حـــدّ ومطلع " عن ابن مسعود رضي الله عنه [كنـــز العمّال ٢ / ٣٠٨٦] . وفي مجمـــع الـــزوائد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أنـــزل القرآن على سبعة أحرف ، لكلّ آية منها ظهر وبطن " قال الهيثمي : رواه البزّار وأبو يعـــلى في الكـــبير ، ورجـــال أبي يعلى ثقات . . [مجمع : التفسير ، باب القراءات ، رقم ١١٥٧٩] وكشف الخفاء ١/ ٢٤٢ .

(٢) وقال محقّق مجمع الزوائد (عبد الله درويش) : الظاهر : ظاهر التلاوة . والباطن : ما بطن من تأويله الذي يعلمه علماء الاستنباط والفقه .

(٧)
فصـــل

قال صاحب التَّعَرف [١] : ممَّنْ نطق بعلوم القوم ، وعبَّر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم قولاً وفعلاً بعد الصَّحابة علي بن الحسين (زين العابدين) [٢] ، وابنه محمد الباقر [٣] ، وابنُه جعفر الصادق [٤] ، وأويس القرني [٥] والحسن البصري [٦] وأبو حازم سلمة بن دينار [٧] ومالك بن دينار [٨] وعبد الواحد ابن زيد وعتبة الغلام [٩] وإبراهيم بن أدهم [١٠] والفضيل بن عياض [١١] ،

---

(١) كتاب " التعرُّف لمذهب أهل التَّصوف " لمحمّد بن إبراهيم الكَلاباذي البخاري (من أهل بخارى ، توفّي سنة ٣٨٠ هـ) نشرته مطبعة عيسى البابي الحلبي في مصر ١٣٨٠ هـ .

(٢) علي بن الحسين (زين العابدين) (٣٨ ـ ٩٤ هـ) .

(٣) محمد الباقر بن زين العابدين علي (٥٧ ـ ١١٤ هـ) .

(٤) جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٠ ـ ١٤٨ هـ) .

(٥) أوَيْس بن عامر القَرَنيّ (بفتح القاف والراء) منسوب إلى بني قَرن بن ردمان (٠٠ ـ ٣٧ هـ) .

(٦) الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ) .

(٧) سلمة بن دينار ، أبو حازم : عالم المدينة وقاضيها وشيخها (٠٠ ـ ١٤٠ هـ) .

(٨) مالك بن دينار البصري (٠٠ ـ ١٣١ هـ) .

(٩) عبد الواحد بن زيد وعتبة بن أبان الغلام أدركا التابعين ، وصلّىَ عبد الواحد الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة ،ومات عتبة شهيداً في قتال الروم [الطبقات الكبرى للشعراني ١ /٤٦ و ٤٧] .

(١٠) إبراهيم بن أدهم البلخي (٠٠ ـ ١٦١ هـ) .

(١١) الفضيل بن عياض ، أبو علي التميمي (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ) .

وابنه علـيّ ، وداود الطائي [1] وسفيان الثوري [2] وأبو سليمان الدّاراني وابنه سليمان [3] ، وأحمد بن أبي الحواري [4] وذو النون المصري [5] في آخرين .

وذكر غيره أنّ علي بن أبي طالب أوّل من نهج الطريق ثمّ ابنه الحسن .

* * *

(١) داود بن نصير الطّائي ، أبو سليمان (٠٠ -١٦٥ هـ) .

(٢) سفيان بن سعيد الثوري من بني ثور من مصر ، أمير المؤمنين في الحديث (٩٧ - ١٦١ هـ)

(٣) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطيّة الدّاراني . مات سنة ٢١٥ هـ .

(٤) أحمد بن أبي الحواري ، أبو الحسن ، من أهل دمشق . مات سنة ٢٣٠ هـ .

(٥) ذو النون : ثوبان بن إبراهيم المصري ، مات سنة ٢٤٥ هـ .

(٨)
فصـــل

أمـــا كـــلام علي فأشهره –وهو الذي أورد كثير من الصوفيّة في كتبهم –ما أخرجه أبو نعيم في الحلْية عن الكُمَيْل بن زياد قال : أخذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي ، فأخرجني إلى ناحية الجبّان [١] فلمّا أصحْرنا [٢] جلس ثم تنفّس ، ثم قال : " يـــا كُميْل بن زياد ، القلوبُ أوعية ، فخيرُها أوعاها ، احفظْ ما أقوله لك : الناسُ ثلاثـــةٌ ، فعالم ربّانِي ، ومتعلّم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتْباع كلّ ناعق [٣] . . إلى أنْ قال : إنّ هاهنا ــ وأشار إلى صدره ــ علماً لو أصبْتُ له حَمَلةً !

بـــلى [٤] ، أصـــبْته لَقِناً غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدّيْن للدنيا يسْتظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده .

أو مـــنقاداً لأهـــل الحقّ لا بصيرةَ له في إحيائه ، ينقدح الشّكّ في قلبه بأوّل عارضٍ من شُبْهة . لاذا ، ولا ذاك [٥] .

---

(١) الجَبّان (هنا) : الصحراء .

(٢) أصحْرنا : وصلْنا إلى الصحراء .

(٣) همج : حمقى . رعاع (بضم الراء ، وبفتحها) : غوغاء . ج رعاعة : مَنْ لا قلب له ولا عقل ونعق الراعي بغنمه : صاح بها وزجرها . ونعق فلان في الفتنة : جلّب(أحدَث جلَبة وضجيجاً).

(٤) يؤكـــد الإمـــام رضي الله عنه أنّه لم يجد من يصلح لحمل العلم ــ إلا قليلاً ممّن سيذكرهم ــ وأكثر من وجده منهم : لقِنٌ (أي ذو عقل وذكاء) لكنّه ذو ارتكاس إلى الدنيا يبيع بها دينه ، ولا يـــستعمل ذكـــاءه في حـــيازة الأبقـــى . أو رجلٌ رقيق الدين ، ضعيف اليقين ، أو مَنْهومٌ باللذّات.

(٥) ذا : الذي يسرع إليه الشّكّ . وذاك : اللّقِنُ المؤثر للدنيا .

أو منهوماً باللذّات ، سَلِسَ القِياد للشّهوات ، مُغْرًى بجمع المال والادّخار ، وليس من دعاة الدين ، أقربَ شبهاً بالأنعام السائمة [٦] كذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم لن تخلو الأرض من قائم لله بحُجّة ، لكيلا تبطل حُجَجُ الله وبيّناته، أولئك هم الأقلّون عدداً ، الأعظمون عند الله قدْراً ، بهم يدفع الله عن حُجَجِه حتى يؤدّوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباهِهم . هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استَوْعَرَ منه المترفون ، وأنِسوا بما استوحش منهُ الجاهلون . صحبوا الدنيا بأبدان أرواحُها معلّقةٌ بالنّظر الأعلى . أولئك خلفاء الله في بلاده ، ودعاتُه إلى دينه ، فآهاً وشوْقاً إلى رؤيتهم " .

وأما بقيّة كلام عليّ رضي الله عنه ، وكلام مَنْ ذُكِرَ معه . فمسرود في تراجمهم في كتابي المسمّى حلية الأولياء . وتركْتُ سَرْدَهُ هنا خشية الإطالة .

* * *

(٦) الأنعام : الإبل والبقر والغنم . والسائمة : التي ترعى .

(٩)

فصل

قال عبد الغافر الفارسي : أخذ الأستاذ أبو القاسم القشيري طريق التصوُّف عن الأستاذ أبي علي الدَّقاق . وأخذها أبو عليّ عن أبي القاسم النصر اباذي ، والنصر اباذي عن الشّبلي ، والشبلي عن الجنيد ، والجنيد عن السريّ السقطي ، والسريّ عن معروف الكَرْخي ، ومعروف عن داود الطائي ، وداود [١] لقي التابعين . وهكذا كان يذكر إسناد طريقته .

* * *

(١) انظرْ في التعريف بهم الرسالة القشيرية للقشيري ــ عبد الكريم بن هوازن ــ والطبقات الكبرى للشعراني وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وطبقات الأولياء لابن الملقّن . .

(١٠)
فصـــل

قال الشيخ الإمام الحافظ تقيّ الدين بن الصّلاح [١] إمام الشافعيّة والمحدّثين في عصـره : لُبْسُ الخِرْقة من القُرب [٢] ، وقد استخرج لها بعض المشايخ أصلاً من سُنّة الـنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث أمّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاصي أن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم أُتِي بكسوة فيها خميصة ، فقال : " مَنْ ترون أحقّ بهذه ؟ " فسكَتَ القوم . فقال : " ائتوني بأمّ خالد " فأُتِيَ بها . فألبسها إياها ، ثم قال : " أبْلي وأخلقي " مرّتين . أخرجه البخاري [٣] .

قـال ابن الصّلاح : وَلِيَ في لُبْس الخرقة إسنادٌ عالٍ جداً : ألبسني الخرقة أبو الحسـن المؤيد بن محمد الطّوسي ، قال : أخذتُ الخِرقة من أبي الأسعد هبة الرحمن بن أبي سـعيد عـبد الواحد بن أبي القاسم القشيري قال : أخذت الخرقة من جدّي أبي القاسـم ، وهـو أخذها من أبي علي الدّقّاق ، وهو أخذها من أبي القاسم إبراهيم بن محمـد بن حمويه النصر اباذي ، هو أخذها من أبي بكر دلف بن جحدر الشّبلي ، وهو أخذهـا من الجنيد ، وهو أخذها من السّرِيّ ، هو أخذها من معروف الكرخي ، وهو

---

(١) عـثمان بـن صلاح الدين عبد الرحمن الشهرزوري الكردي (٥٧٧ ــ ٦٤٣ هــ) صاحب كتاب " معرفة أنواع علم الحديث " المشهور بمقدّمة ابن الصّلاح .

(٢) الخـرقة : القطعـة مـن الثوب الممزّق المراد ثوبٌ يَخلعه الشيخ على المُرِيد والقُرْبة : كلُّ ما يُتقرَّبُ به إلى الله تعالى .

(٣) الـبخاري : اللـباس ، بـاب ما يُدْعى لِمَنْ لبس ثوباً جديداً ، رقم ٥٥٠٧ وباب الخميصة الـسوداء ، رقـم ٥٤٨٥ وفيه : " فأتِيَ بها تُحْمَلُ " أي لصِغَرِها ، إذ كانتْ جُوَيْرِيَة صغيرة . أبلي وأخلقي : من البلى والخلَق وهو الاهتراء ، دعاء لها بطول العمر . خميصة : ثوب .

أخذهـــا مـــن داود الطّائي ، وهو أخذها من حبيب العجمي ، هو أخذها من الحسن البصـــري ، وهو أخذها من علي بن أبي طالب ، وهو أخذها من النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ابن الصّلاح : وليس بقادح [1] فيما أوردْناه كَوْنُ لُبس الخِرْقة ليس متّصِلاً إلى منـــتهاه عـــلى شـــرط أصحاب الحديث في الأسانيد ، فإنّ المراد ما يحصّل البَركة والفائدة باتّصالها بجماعة من السّادة الصّالحين .

* * *

(١) قدَح : عاب .

(١١)

فصـــــل

قال يحيى بن عمَّار التَّيمْيّ السِّجستاني : العلوم خمسة .

ــ علم هو حياة الدِّين ، وهو علم التَّوحيد .

ــ وعلم هو قوت الدين ، وهو علم العظَة والذِّكْر .

ــ وعلم هو دواء الدِّين ، وهو الفقه .

ــ وعلم هو داء الدِّين ، وهو أخبار فتن السَّلَف .

ــ وعلم هو هلاك الدِّين ، وهو علم الكلام . انتهى .

* * *

(١٢)

فصـــــل

قـال الشـافعيُّ رضـي الله عنه : صحبت الصوفيّة فلم أستفدْ منهم سوى حـرفين ، وفي روايـة : سـوى ثلاث كلمات قولهم : الوقت كالسيف إنْ لم تقطعه قطعـك . وقولهـم : نفسـك إنْ لم تشغلْها بالحقّ شغلَتْك بالباطل . وقولهم : العدمُ عصمة .

* * *

(١٣)
فصل

وقال الشيخ تاج الدّين السبكي [١] في كتابه : " معيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم " : المثال السادس والستُّون : " الصوفيّةُ حيَّاهم الله وبيّاهم [٢] ، وجمعنا في الجنّة نحن وإيّاهم . وقد تشعَّبت الأقوال فيهم تشعُّباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتشبّهين بهم .

قال الشيخ أبو محمد الجويني [٣] : لا يصحّ الوقف عليهم ، لأنّهم لا حدّ لهم معروف ، والصحيحُ الصِّحَّة : أنّهم المُعرِضون عن الدُّنيا ، المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة ، ومن ثَمّ قال الجنيد : التَّصَوُّف استعمالُ كل خلُق سَنِيّ ، وتركُ كلّ خلُقٍ دنيّ .

وقال الشبليّ [٤] : التَّصَوُّف ضبط حواسّك ومراعاة أنفاسك .

وقال ذو النون المصري : الصُّوفيُّ مَنْ إذا نَطَقَ أبانَ نُطْقُه عن الحقائق ، وإذا سكت نطقتْ عنه الجوارح .

وقال ابنُ بندار [٥] : التَّصَوُّف إسقاطُ رؤية الخلْق ظاهراً وباطناً .

وقال أبو علي الروذباري [٦] : الصوفي مَنْ لبس الصوف على الصَّفا ، وأذاق الهوى طعْمَ الجَفا ، ولزم طريقَ المصطفى ، وكانت الدّنيا منه على القفا .

---

(١) عبد الوهاب بن علي (٧٢٧ – ٧٧١ هـ) وهو صاحب طبقات الشافعية الكبرى .

(٢) بيّاهم : سرّهم وبوّأهم مكاناً حسناً .

(٣) عبد الله بن يوسف ، توفي سنة ٤٣٨ ، وهو والد إمام الحرمَيْن .

(٤) أبو بكر دُلف بن جحدر البغدادي . توفي سنة ٣٣٤ هـ .

(٥) أبو الحسن علي بن بندار ، وأبوه بندار بن الحسين مات ٣٥٣ هـ . وكلاهما من مشاهير الصوفيّة .

(٦) أحمد بن محمد . توفي سنة ٣٢٢ هـ .

وكان الشيخ الإمام يقول : الصُّوفِيّ مَنْ لزم الصَّفا مع الحقّ ، والخُلُقَ الحسن مع الخَلْق . وينشد :

تنازعَ النَّاسُ في الصُّوفيّ واختلفوا قدْمـاً وظنُّوه مشتقّاً من الصُّوفِ
ولست أنْحَلُ هذا الاسم غير فتىً صافَى فصوفِيَ حتى سُمّي الصوَّفي

وهذه عبارات متقاربة .

والحاصـلُ : أنّهـم أهـلُ الله وخاصّـته ، الذين تُرْتَجَى الرحمة بذكرهم ، ويُسْتنـزلُ الغيث بدعائهم ، فرضي الله عنهم ، وعنَّا بهم .

وللقـوم أوصـاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم . قال الأستاذ أبو القاسم القشـيري [١] : جعل الله هذه الطائفة صَفْوَةَ أوليائه ، وفضَّلهم على الكافّة من عباده بَعْـدَ رسله وأنبيائه ، ثمّ جعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصّهم من بين الأمّة بطوالع أنواره ، فهم الغياثُ للخَلْق ، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحقّ " [٢] .

ومـن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرَّحْمةُ والعَفْوُ والصَّفح وعدم المؤاخذة ، وضابطهم ما ذكرناه ، وطريقتُهم كما قال أبو القاسم الجنيد : " طريقنا هذا مضبوط بالكـتاب والسُّـنّة " . وقال : " الطّريقُ مسدودٌ على خَلْق الله إلّا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم " [٣] .

ومـن حقّهـم تربـية المريد إذا لاحت عليه لوائح الخير ، وإمدادُه بالخاطر والدُّعاء ، ويُحْكى عن بعض المشايخ أنّ تلميذه حضر إليه وهو جالس في جماعة ، وقد ارتفـع النَّهار ، فتفرّس الشيخُ أنّه في الليلة الذاهبة قد ارتكب معصية ، فنظر إليه نظر

---

(١) عبد الكريم بن هوازن النيسابوري . توفي سنة ٤٦٥ .

(٢) الرسالة القشيرية (بيروت) : المقدمة ١٢ .

(٣) الرسالة القشيرية ٦٧ . والجنيد بن محمد من أكثر العلماء استقامة واعتدالاً وورعاً ، توفي سنة ٢٩٧ هـ ، ويعدّ الإمام الأكبر للتصوّف الشّرْعي .

مُغْضب ، ولم يُمكنه الإفصاح لـه بمحضر من الجماعة ، فنظر التلميذ إلى الشيخ نظرة مُنْكر ، فقام الشيخ وجاء وقبّل يد المريد .

ولم يفهـم الجماعة شيئاً ، فسُئل الشيخ بعد ذلك ، فقال : إنه البارحةَ وقع في الزّنا ، فنظرت إليه نظرة مغضب لذلك ، فنظر إليّ نظَرَ عاتب يقول : لو كان خاطرك معـي وإمدادك مصاحبي لما وقع منّي ذلك ، فأنتَ المُقصِّر ، فقبَّلتُ يدَه لصدْقه ، فإن التّقْصير منّي .

ومـن حقّهـم الوقـوف عـلى إظهـار ما يطلعهم الله عليه من المغيّبات ، ويخصّـهم بـه مـن الكرامات ، على الإذْن ، وهم لا يجيزون إظهارها بلا فائدة ، ولايظهرونها إلّا عن إذْن ، لفائدة دينية ،مِنْ تربيةٍ أو بشارةٍ أو نذارة كما قال الصّدّيق لعائشـة رضـي الله عـنهما عـند موتـه : إنّمـا همـا أخواك وأختاك . قالت : إنّما هي أسماء فمن الأخرى ؟ قال : ذو بطن ، بنت خارجة ، أراها جارية [1] .

---

(١) أخبرها أنّ لها أخاً (أو أختاً) ما زال في بطن أمّه . ثم أوضح أنّ هذا الذي ما زال في بطن أمّه إنّمـا هو أنثى وأمّها حبيبة بنت خارجة . وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه قد تزوّج اثنتين قـبل الإسلام : قتيلة بنت عبد العزّى العامرية ، فولدت له عبد الله وأسماء ، وتزوّج أم رومان الكنانية وهي والدة عبد الرحمن وعائشة . وتزوّج في الإسلام اثنتين أيضاً : إحداهما أسماء بنت عمـيس الخثعمية ، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمها ، وأمّ محمد بن أبي بكر ، والأخـرى : حبيـبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، توفي أبو بكر رضي الله عنه وهي حامل ، فولدت له بعد وفاته جارية سمّيت أم كلثوم . تزوجها لما شبّت طلحة بن عبيد الله . رضوان الله عليهم أجمعين . ولما حضر أبا بكر رضي الله عنه المنية كان لعائشة رضي الله عنها أخوان : عبد الرحمن ومحمد ، أما الثالث (عبد الله) فكان قد توفي سنة ١١ هـ ، وكان لها أختان : أسماء ، والطفلـة المحمولة في بطن أمها ، ولم تكن أم المؤمنين تعلم بالطفلة ، فأخبرها الصدّيق رضي الله عنه لتراعي ذلك عند توزيع الإرْث .

فولدت بعد وفاته بنتاً . فلم يظهر أبو بكر ذلك إلّا لاستطابة قلب عائشة عن استرجاع ما كان يخصُّها [١] من الإرْث .

وكذلك قول عمر رضي الله عنه : يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ [٢] . وقصّته في الزلزلة [٣] وإجراء النّيل [١] ، وغير ذلك ، وإنّما أظهرها لمصلحة .

---

(١) الضمير " ها " عائد إلى أم كلثوم .

(٢) وجّه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جيشاً لفتح المشرق بقيادة الصحابي سارية بن زُنَيْم ، وكان سارية رضي الله عنه شاعراً قائداً فاتحاً ، عدّاءً يسبق الفرس عدْواً على رجلَيْه ، فبينما عمر رضي الله عنه يخطب في المدينة المنوّرة على المنبر جعل ينادي : يا سارية ، الجبلَ الجبلَ (الجبل - الأولى - اسم منصوب على الإغراء بفعل محذوف تقديره الزم) وكرّرها ، وكان سارية رضي الله عنه بباب نَهاوَنْدَ ، ثمّ قدم رسول الجيش ، فسأله عمر رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين هُزِمْنا ، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا صوتاً ينادي : يا سارية الجبل الجبل - ثلاثاً - فأسندنا ظهرنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى . ووثّق ابن تيميّة هذا الأمر ، وأورده البيهقي في دلائل النبوة واللالكائي في شرح السنة ، والسبكي في معيد النعم . . .

(٣) زلزلت الأرض في زمن عمر رضي الله عنه ، فضربها بالدِّرّة ، وقال : ويحَكِ قرّي ، ألمْ أعدلْ عليك ؟ وكانت ترتجف ، فاستقرّتْ من وقتها [تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النِّقَم (دار الكتاب العربي) ١٢٣] .

(١) " لـمّا ولي عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل شهر بؤونة فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سنّة لا يجري إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنّه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدْنا إلى جارية بكر من عند أبويها ، فأرضيْنا أبويها وأخذناها ، وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النيل فيجري . فقال لهم عمرو بن العاص رضي الله عنه : إن هذا لا يكون في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله . . (وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بذلك) فكتب إليه عمر رضي الله عنه : " قد أصبْتَ إنّ الإسلام يهدم ما قبله ، وقد بعثتُ إليك ببطاقة فألْقِها في النيل إذا أتاك كتابي : . فلما قدم الكتاب على

وكرامات عمر رضي الله عنه أكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَرَ ، وهي من تمكُّنِه في الأرض ظاهراً وباطناً ، وكونه أمير المؤمنين على الحقيقة ، وخليفة الله في أرضه وساكني أرضه .

وإذا علمتَ أنّ خاصّة القوم هم الصوفيّة فاعلم أنّه قد تشبّه بهم أقوامٌ ليسوا منهم ، فأوجب تشبُّهُ هؤلاء بهم سوءَ الظنّ ، ولعلّ ذلك من الله قصداً لخفاء هذه الطائفة التي تؤثر الخمولَ على الظهور .

ثم قال [1] : وعلى الشيخ تربيةُ المريد وحملُ الأذى والضيّم على نفسه ، واعتبار قلوب جماعته قبل قوالبهم ، والكلام مع كلٍّ منهم بحسب ما يقبله عقله ، وتحمِلُه قواه ، ويصل إليه ذهنه ، والكفّ عن ذكر ألفاظ ليس سامعها من أهلها ، كالتَّجَلِّي والمشاهدة ورفع الحجاب [2] ، إذا كان السامع بعيداً عنها ، فإنّ في ذكرها

= عمرو بن العاص فتح البطاقة ، فإذا فيها : " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر : أما بعد ، فإن كنت تجري من قِبَلِك فلا تجرِ ، وإنْ كان الله الواحد القهّار هو الذي يُجْريك فنسأل الله الواحد القهّار أن يجريكَ " فازداد النيل ، وقُطعت تلك العادة القبيحة ببركة سيدنا عمر رضي الله عنه . النجوم الزاهرة ١ / ٣٦ وخطط المقريزي ١ / ٥٨ [جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (الحلبي) ١ / ٢١٤] .

(١) أي تاج الدين السبكي .

(٢) " وأعلى الرتب هي رُتْبةُ التجلّي ، ومنها تقع مشاهدة الحقائق الكونيّة ، ويترقّى السّالك بها من المعرفة التي يسمونها " علم اليقين " إلى ما وراء صورة العلم ، ومن إدراك حقائق الأشياء ، وهي مرتبة " حقّ اليقين " إلى مشاهدة القلب للحقائق ذاتها وهي " عين اليقين " وهذه المشاهدة الأخيرة لا تكون ضرورة إلا بعد هذه الحياة " [عبد العزيز سيد الأهل : المدخل إلى أدب التصوّف (معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٧) ٥٧] .

" المشاهدة : وهي حضور الحقّ من غير بقاء تهمة (شبهة) . . (وقال الجنيد هي) : وجود الحقّ مع فقدانك " [الرسالة القشيرية ١٣٩ و ١٤٠] .

لــه من المفاسد ما لا خفاء به . بل يأخذ المريد بالصّلاة والتّلاوة والذّكْر ، ويربّيه على التدريج .

والله الله في ألفاظ جرتْ من بعض سادات القوم لم يَعْنُوا بها ظواهرَها ، وإنّما عَنَوْا بها أموراً صحيحة ، فلا ينبغي للشيخ ذكرها لِمُريد فإنّه يُضِلّه ، مثل ما يقال عن بعضهم : العلم حجاب . فإنّه ما يريد به ظاهر ما يفهمه المبتدئ منه ، ولكن لــه معنى لايناسب حال المبتدي الكشفُ عنه .

وغـير ذلك من ألفاظ ربما جَرى بعضها في حال السُّكْر ، فإنّها ممّا لا يقتدى بها ، ولا يوجب القدح في قائلها ، بل نُسْلِمُ إليه حاله ، ونُقيم عُذْره فيما سقط من بين شفتيه حال الغيبة فإنّ الشّارع لم يكلف غائب الذّهن .

هذا إذا فُقِدت أسباب التأويل لكلامه بالكُلّيّة ، ولن تجد ذلك إن شاء الله في كلام أحد من المعتبرين ، قد نزّه الله ألفاظهم عن الأباطيل ، وما هم كلمة إلّا ولها محمل حسن " .

هذا كلّه كلام السُّبكي .

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : ومن الفقهاء فِرْقةٌ متنسّكة تجري على ظواهــر الشــرع ، وتحسن أوامر الله ونواهيه إلّا أنّها تهزأ بالفقراء وأهل التصوّف ، ولاتعتقد فيهم شيئاً [1] ، ويعيبون عليهم السّماع وأموراً كثيرة .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في " النــزاع بين الصوفيّة والفقهاء في القرنين الثالث والرابع الهجريّن " . رسالة ماجستير بجامعة القاهرة سنة ١٩٤١ برقم ٢١٨٠ ، قدّمها عبد المحسن محمد .

والسَّماع قد عُرِف اختلاف الناس فيه [1] ، وتلك الأمور قلّ أنْ يفهمها من يعيبها ، والواجبُ تسليم أحوال القوم لهم ، فإنا لا نأخذ أحداً إلّا بجريمة ظاهرة ، ومتى أمكننا تأويل كلامهم وحمله على محمل حسن ، لا نَعْدل عن ذلك ، لا سيما من عرفناه بالخير ولزوم الطَّريقة ثم ندَّتْ [2] منه لفظة ، فإنها لا تهدم عندنا ما مضى .

وقد جرّبنا فلم نجدْ فقيهاً يُنكر غلطةً أو سقطةً على الصوفية إلّا ويهلكُه الله ، وتكون عاقبتُه وخيمة [3] .

وهؤلاء القوم لا يُعامَلُون بالظّواهر ، ولا يفيد معهم إلّا الباطن ومَحْضُ الصَّفا ، وهم أهل الله وخاصّته ، نفعنا الله بهم ، وأكثرُ مَنْ يقعُ فيهم لا يصلح . انتهى كلام السبكي بحروفه .

* * *

---

(١) قال ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس في مبحث " ذكْر تلبيس إبليس على الصوفيّة في السَّماع والرَّقص والوجْد " : " وقد تكلّم الناسُ في الغناء فأطالوا فمنهم من حرّمه ومنهم من أباحه من غير كراهة ، ومنهم من كرّهه مع الإباحة . وفَصْلُ الخطاب أن نقول : ينبغي أن يُنظر في ماهيّة الشيء ، ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك . والغناء اسم يُطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات . . يصفون فيها الكعبة وزمزم ، وربّما ضربوا مع إنشادهم بطبل ، فسماع تلك الأشعار مباح " [تلبيس إبليس (المنيرية) ٢١٥] .

(٢) ندّتْ : شَذّتْ .

(٣) وخيمة : مستثقلة ضارّة ، غير محمودة ، ولا ناجعة .

(١٤)

فصـــــل

قـــال في الرَّوضة [١] : الوقف على الصوفيّة : حُكِيَ عن الشيخ أبي محمد أنّه بـــاطل ، إذْ ليس للمتصوّف حدّ يُعرف ، والصحيح المعروف صحّته وهم المشتغلون بالعبادة في أغلب الأوقات ، المعرضون عن الدّنيا .

وفصّل الغزالي في الفتاوى ، فقال : لا بدّ في الصُّوفيّ من العدالة وترك الحِرْفة ، ولا بأس بالوراقة والخِياطة ، وشبهها إذا تعاطاها أحياناً في الرِّباط [٢] لا في الحانوت ، ولا يقدحُ [٣] قدرتُه على الكسب ، ولا اشتغاله بالوعظ والتدريس ، ولا أن يكون له مـــن المـــال قـــدْرٌ لاتجب فيه الزكاة ، ولا يفي دخْلُه بخَرْجه ويقدح الثروةُ الظاهرة بالعـــروضِ الكـــثيرة ، ولا بدّ أنْ يكون في زيّ القوم ، إلّا أنْ يكون مساكناً ، فتقوم المخالطةُ والمساكنة مقام الزّيّ . قال : ولا يشترط لبس المُرَقّعة من شيخ . وكذا ذكر المتولّي .

* * *

---

(١) روضـــة الـــناظرين وخلاصـــة مناقب الصالحين لأحمد بن محمد الوتري (المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـــ) .

(٢) الرِّباط (هنا) : ملجأ الفقراء من الصوفيّة .

(٣) يقدح : يعيب .

(١٥)
فصـــل

قال الغزالي في جواهر القرآن : مقاصد القرآن ستّة ، سادسُها : تعريف منازل الطريق ، وإليه الإشارة بقوله في الفاتحة : (إياك نعبد وإياك نستعين) .

وقال الطيبي [١] في حاشية الكشّاف : العلوم التي هي مناط الدين أربعة ، كلها في الفاتحة : علم الأصول وعلم الفروع وعلم القصص وعلم ما يحصل به الكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجَلُّهُ الوصول إلى الحضرة الصمدانيّة ، والالتجاء إلى جنات الفردانيّة ، والسلوك لطريقه ، والاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم) [٢]

* * *

(١٦)
فصـــل

ويؤخذ من بقية السّورة بطريق الإشارة أنّ ثَمَّ [٣] طُرقاً أخرى متشعّبة ، خارجة عن سنن الاستقامة ، فليحذر منها ، وهي طريق (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

* * *

---

(١) شرف الدين الطِّيبي : الحسين بن محمد (. . . - ٧٤٣ هـ) من علماء الحديث والتفسير والبيان / من أهل توريز (عراق العجم) كان شديد الردّ على المبتدعة ، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنّة ، له " شرح الكشّاف " للزمخشري ، في أربعة مجلدات ضخمة في التفسير ، سماه " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " .

(٢) الفاتحة ٥ و ٦ .

(٣) ثَمّ (بفتح الثاء) : هنالك (ظرف مكان) .

(١٧)

فصـــل

قـــال ابن القاصّ – من كبار أصحابنا – في كتابه " التلخيص " في الفقه ، لَمّا عدّ خصائص النبي صلى الله عليه وسلم الواجبة عليه دون سائر الأمّة : منها أنّه صلى الله عليه وسلم كان مطالباً برؤية مشاهدة الحقّ مع معاشرة النّاس بالنفس والكلام .

وذكر هذه الخصيصة أيضاً القضاعي في سيرته وابن سبع في خصائصه ، وحمل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله " [1] .

وقـــد ذكـــر هذه الخصيصة أيضاً ابن الملقّن في الخصائص . وقال البيهقي في شـــعب الإيمـــان : ذكـــر بعض أهل العلم أنّ الغين شيء يغشَى القلب فيغطيه بعض التغطية ، ويحجبه عمّا يشاهده ، وهو كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهوى ، ولا يكاد يحجـــب عين الشمس ، ولا يمنع ضوءها ، والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنّه يُغْشَى قلبَه ما هذه صفته ، وذكر أنه يستغفر الله منه كل يوم مئة مرّة .

ثم قـــال البـــيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ – يعني شيخه الحاكم صاحب المســـتدرَك – قال : سمعتُ الأستاذ أبا سهل محمد بن سليمان – يعني الصعلوكي أحد أئمة الشافعيّة ، وهو المبعوث على رأس المئة الرابعة فيما ذكر الأصحاب [2] ، يقول : قو..له " لـــيغان على قلبي " له تأويلات . أحدها يختصّ به أهل الإشارة ، وهو حملهم

---

(١) مســـلم : الذّكـــرْ ، باب استحباب الاستغفار ، رقم ٢٧٠٢ وأبو داود : الصلاة ، باب في الاستغفار ، رقم ١٥١٥ . قال ابن الأثير : المبارك بن محمد (٥٤٤ – ٦٠٦ هـــ) : (ليغان على قلبي) : أي ليُغَطَّى ويُغشى ، والمراد به السهو ، لأنّه كان صلى الله عليه وسلم لا يزال في مزيد من الذّكْر والقُرْبة ودوام المراقبة ، فإذا سها عن شيء منها في بعض الأوقات ، أو نسي ، عدّه ذنباً على نفسه ، ففزِع إلى الاستغفار [جامع الأصول (دار الفكر) ٤ / ٣٨٦] .

(٢) يريد أنّه مجدد المئة الرابعة ، وكان علامة بالأدب والتفسير (٢٩٦ – ٣٦٩ هـــ) .

إياه على غَشْية السَّكْرة ، التي هي الصَّحو في الحقيقة [1] ومعنى الاستغفار عقبها : على التحسّر للكشف عنها . وأهل الظّاهر يحملونها على الخطرات العارضة للقلب ، والطّلبات الواردة عليه ، الشاغلة له بهذه الغَشْية الملابسَة .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي [2] : سمعتُ هذا الحديث فأشكل عليّ معناه ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لي : يا مبارك ذاك غَيْنُ أنوار ، ولاغَيْنُ أغيار .

* * *

(١) السُّكر : عدم الإحساس بغير الله تعالى . والصَّحو : وجود الإحساس بغيره . هذا بالمفهوم الصوفي ، وهو على عكس فحواها اللغوي .

(٢) أبو الحسن الشاذلي : علي بن عبد الله (٥٩١ - ٦٥٦ هـ) رأس الطائفة الشاذليّة الرفاعيّة . وشاذلة : بلدة قرب تونس .

(١٨)

فصـــل

قـــال شارح منازل السائرين : حقيقةُ الشيء عند أهل الشأن علاماتُه الدالّة علـيه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لحارثة [١] رضي الله عنه : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال ، إنّ لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا . . " الحديث [٢] . فأخبره بعلامات صحّة الإيمان .

* * *

(١) حارثة أو حارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه .

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذْ استقبله شابّ من الأنصـــار ، فقـــال له النبي صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمـــناً بـــالله حقاً . قال : انظرْ ما تقول ، فإنّ لكل قول حقيقة . قال : يا رسول الله ، عزفتْ نفســـي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهـــل الجنة يتزاورون ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوَوْن فيها . قال : أبصرْتَ فالزَمْ ، عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه . فقال : يا رسول الله ، ادْعُ الله لي بالشهادة ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودي يوماً في الخيل فكان أول فارس ركب ، وأول فارس استُشهد . قال : فـــبلغ ذلك أمّه ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن يكنْ في الجنة لم أبكِ ولم أحزنْ ، وإنْ يكنْ في النار بكيت ما عِشْتُ في الدنيا . فقال : يا أم حارث — أو حارثة — إنّها ليست بجنّة ، ولكنها جنّة في جنات ، والحارث في الفردوس الأعلى . فرجعتْ وهـــي تضـــحك وتقول : بخٍ بَخٍ يا حارث . رواه ابن النجّار وفيه يوسف بن عطية (كنـــز العمـــال ٣٦٩٩١) وأخـــرجه ابـــن عـــاكر ، والعسكري في الأمثال (كنـــز ٣٦٩٨٩ و ٣٦٩٩٠) . وهو في مجمع الزوائد ١ / ٥٧ وإتحاف السّادة المتقين ٢ / ٢٣٨ و ٢٨٠ و ٩ / ٣٢٧ والدر المنثور ٣ / ١٦٣ ومصنف ابن أبي شيبة ١١ / ٤٣ وتفسير ابن كثير ٣ / ٥٥٢ والضـــعفاء للعقيلي ٤ / ٤٥٥ والمعجم الكبير للطبراني ٣ / ٣٠٢ ، وتذكرة الموضوعات لابن القيسراني ٦٠٤ . والإصابة لابن حجر ١٧٤ ويوسف بن عطية الصّفار لا يحتجّ به . فالحديث ضـــعيف الإسناد . وروي : يتضاغَونْ : في محل " يتعاوون " أيْ يصيحون ويضجّون ويبكون . بخ : كلمة استحسان .

(١٩)

فصــــل

ويظهــر لي أنّ أهــل هذا الشأن إنّما سمّوا علمهم علم الحقيقة أخذاً من لفظ الحقــيقة في هذا الحديث ، وقد ظهر لي أنّ نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة عــلم المعاني والبيان إلى علم النحو ، فهو سِرّه ومبني عليه فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين ، ولا يحصل على شيء ، كما أنّ من أراد الخــوض في أســرار علم المعاني والبيان من غير أن يحكّم النَّحْوَ فهو يخبط خَبْطَ عَشْــواء ، وكــيف يدرك أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلّقات الفعل مَنْ لم يعــرف المبــتدأ من الخبر ، والفاعل من المفعول ؟ هذا بيّن لكل أحد . والحقيقة سرّ الشريعة ولبّها الخالص [١] ، كما أنّ المعاني والبيان سرّ النحو ولطائفُه .

والتصــوّف فقه بلا شكّ ، فإن أكثره تكاليف واجبة ومندوبة ، ومنها محرّمة ومكروهة . وقد نصّ على أنّ أبواب التصوّف من الفقه جماعة من أهل الأصول حيث ذكــروا حدّ الفقه ، ووافقهم ابن السُّبكي في جمع الجوامع ، وضمّ إليه مسائل أصول الدّين التي يجب اعتقادها ، فقال : إنها عندي فقه .

واعــلم أنّ دقائق علم التصوّف لو عرضتْ معانيها على الفقهاء بالعبارة التي ألِفُوها في علومهم لاستحسنوها كلّ الاستحسان وكانوا أول قائل بها ، وإنّما ينفّرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها ، ولهذا قال بعضهم : الحقيقة أحسنُ ما تعلم ، وأقبحُ ما يقال . وأنا أورد لك مثالاً تعرف (منه) صحّة ذلك .

---

(١) قال أبو العباس أحمد زرّوق : " فلا تصوّف إلا بفقه ، إذْ لا تُعْرَفُ أحكام الله الظّاهرة إلا منه . ولا فقــه إلا بتصــوّف ، إذْ لا عمــل إلا بصدق وتوجُّه . . ومنه قول مالك رحمه الله : " من تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق . ومن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق " والفقه والتصوّف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه " [قواعد التصوّف (ط٢) ٤ و ١٢] .

قـال في مـنازل السّائرين : حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز الثّقة من العزّة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة أبداً . فإذا سمع الفقيه هذا اللفظ ، وهو " التوبة من التوبة " استغربه جداً ، وقال : كيف يُتاب من التوبة ، وهي عمل صالح ، وإنما يُتاب من المعاصي .

وتقرير معناه : أنّ العبْدَ إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفتْ إلى أعماله ، ولم يسكنْ إليها بقلبه ، توبةً كانت أو غيرها ، فيتوب من سكونه إلى توبته .

ويُـزاد إيضـاحاً أن الـتوبة وإنْ كانتْ مِنْ كسب العبد فهي مِنْ خَلْق الله وتوفـيقه ، فهو التّائبُ عليه ، ولو لم يتبْ عليه لما تاب ، قال تعالى : (ثم تاب عليهم ليتوبوا) [1] فأيُّ صنعٍ للعبد في التّوبة أو غيرها ، وهو الذي وفّقه الله لفعلها ؟ فرؤيةُ العـبد التوبة من نفسه ذنب يستغفر منه ، بل عليه أنْ يشهدَ محضَ منّة الله عليه بها ، وتوفيقه لها ، ويُلْغِي نفسه أصلاً عن درجة الاعتبار . وهذا مقام الفناء في التوبة ، وهي أوّل منازل السّائرين . ويقاس به مقام الفناء في التوحيد ، فلا يشهد في توحيده صنعاً ، بل محضَ منّة الله عليه به ، وتوفيقه .

وهذا المعنى إذا عُرِضَ على الفقيه بهذه العبارة المألوفة كان أوّل قائل به وناصر له ، لأنّ الفقيه السُّنّيّ يقاتل على إثبات الأفعال لله ونفيها عن العبد ، مخالفَةً للمعتزلة والقدريّة ونحوهم ، ممن زعم أن العبد يخلق أفعاله ، وأنّ الانتقال مخالفة .

* * *

(١) التوبة ١١٨ .

(٢٠)
فصل

كان الشيخ أبو الحسن الشاذليّ يقول : إذا عرضتْ لكم إلى الله حاجة فتوسَّلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي [١] . وكان يقول : كتاب الإحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت [٢] يورثك النور . وكان يقول : عليكم بالقوت فإنه قُوْت [٣] . وكان يعظِّم الإمام أبا عبد الله محمد بن علي الترمذيّ ، ويقول إنه أحد الأوتاد الأربعة [٤] وكان لكلامه عنده الحُظْوة التّامّة .

* * *

(١) حجّة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي ٤٥٠ – ٥٠٥ هـ له زهاء مئتي كتاب ، منها إحياء علوم الدّين . وغزالة : بلدة قرب طوس .

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي : محمد بن علي الحارثي (توفي سنة ٣٨٦ هـ) طبعه مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .

(٣) قوت : غذاء نفسي وعقلي .

(٤) الوتد عند الصوفيّة : مقام عالٍ جداً من مقامات الأولياء . والترمذي : هو الحكيم الترمذي صاحب : " نوادر الأصول " توفي بحدود ٣٢٠ هـ .

(٢١)

فصـــــل

وسئل الشيخ عزّ الدّين بن عبد السلام [١] عن قول العلماء في الإحياء لمّا ذكر معرفة الله تعالى والعلم به ، قال [٢] : والرّتبة العُليا في ذلك للأنبياء ثم الأولياء العارفين ثم العلماء الراسخين ، ثم الصالحين .

فقدّم الأولياء على العلماء ، وفضّلهم عليهم .

وقال الأستاذ القشيري في أوّل رسالته : أمّا بعد ، فقد جعل الله سبحانه هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضّلهم على الكافّة بعد رسله وأنبيائه .

فهذا كنحو قول أبي حامد .

وهل هذا المذهب صحيح أم لا ؟ فإنّ بعض الناس قال : لا يفضل الولي على العالم ، لأنّ تفضيل الشخص على الآخر إنّما هو برفع درجته لكثرة ثوابه المرتّب على عملــه ، فلا فضل إلا بتفاوت الأعمال ، وقد ثبت أنّ العلم أفضل من العمل ، لأنه متعدٍّ ، والعمل قاصر ، والمتعدّي خيرٌ من القاصر ، وثوابه أكثر ، فصاحبه أفضل .

قــال هــذا القائل : وأمّا تخصيص الله سبحانه وتعالى من شاء بشيء من المِنَحِ والمواهب فليس ذلك برفع درجته له بمجرّده ، ولا يفضل ذلك على غيره وإنّما فَضَلَ الشيءُ غيرَه بكثرة ثوابه المرتّب على أعماله الشاقّة التي كُلّف القيام بها . ولو تجرّدت عن التكاليف لم يفضل بذلك غيره . فما حكم هذا الكلام ؟

---

(١) عبد العزيز بن عبد السلام ، سلطان العلماء (٥٧٧ — ٦٦٠ هـ) .

(٢) الإمــام الغزالي . وقال في موضع آخر : " وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي تشتغل بها أكثر الناس ، فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأةً على معصية الله تعالى ، وأمّا العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي ، إلا الهفوات " [المنقذ من الضلال (دار الكتب الحديثة – علّق عليه الدكتور عبد الحليم محمود) ص ١٦٦] .

فأجاب الشيخ عزّ الدّين بقوله : " أمّا تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الشرع فقول الأستاذ (١) وأبي حامد فيه متّفق ، ولا يشُكّ عاقل أنّ العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال وبما يستحيل عليه من العيب والنُّقصان أفضل من العارفين بالأحكام ، بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول ، لأنّ العلم يشرف بشرف المعلوم وبثمراته ، فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم ، من جهة أنّ متعلّقَهُ أشرف المعلومات وأكملها ، ولأنّ ثماره أفضل الثّمرات ، فإنّ معرفة كلّ صفة من الصّفاتِ توجب حالاً عليه ، وينشأ عن تلك الحال مُلابَسة أخلاق سَنِيَة (٢) ومجانبةُ أخلاق دَنيّة . فمن عرف سعَة الرحمة أثمرتْ معرفته سعةَ الرجاء ، ومن عَرَفَ شدّة النقمة أثمرت معرفتُه شدّة الخوف ، وأثمر خوفه الكفَّ عن الإثم والعصيان والفُسوق ، مع البكاء والأحزان والورع وحسن الانقياد والإذعان . ومن عرف أن جميع النّعمة منه أحبّه ، وأثمرت المحبّة آثارها المعروفة ، وكذلك مَنْ عَرف تفرُّده بالنفع والضّرّ لم يعتمد إلا عليه ولم يفوّض إلا إليه ، ومَنْ عرفه بالعظمة والإجلال هابه وعامله معاملةَ الهائبين من الانقياد والتذليل وغيرهما . فهذه بعض ثمار معرفة الصفات .

ولا شكّ أنّ معرفة الأحكام لا تُورثُ شيئاً من هذه الأحوال ، ولا من هذه الأقوال والأعمال ، ويدلّ على ذلك الوقوع ، فإنّ الفسوق فاشٍ في كثير من علماء الأحكام ، بل أكثرهم مجانبون الطاعة والاستقامة . بل قد اشتغل كثير منهم بأقوال الفلاسفة في النبوّات والإلهيّات ، فمنهم مَنْ خرج عن الدّين ، ومنهم مَنْ شكّ ، فتارةً تترجّح عنده الصّحّة ، وتارةً يترجّح عنده البُطلان (فَهُمْ في رَيْبهم يتردّدون) .

والفرقُ بين المتكلّمين من الأصوليّين وبين العارفين أنّ المتكلّم لُقيت عنه

---

(١) أبو القاسم القشيري .

(٢) سَنِيَة : شريفة ، وضيئة .

علومـــه بالذات والصّفات في أكثر الأوقات ، ولا تدوم له تلك الأحوال ، ولو دامتْ لكـــان مـــن العـــارفين ، لأنّـــه شاركهم في دوام العِرْفان الموجب للأحوال الموجبة للاستقامة . وكيف يُسَاوَى بين العارفين وبين الفقهاء ، والعارفون أفضل الخَلْق وأتقاهم لله ، والله سبحانه وتعالى يقول : (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) [1] ومدحه في كتابه المـــبين أكرم مدحه للعالمين . وأما قوله تعالى : (إنّما يخشى الله من عباده العلماء) [2] فإنّمـــا أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله دون العارفين بأحكامه ، فلا يجوزُ حَمْلُ ذلك عـــلى علماء الأحكام ، لأنّ الغالب عليهم عدَمُ الخشية ، وخبرُ الله تعالى صِدْقٌ ، فلا يُحمل إلاّ على مَنْ عرفه وخَشيَه .

وقد رويَ هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو تَرْجُمان القرآن [3] .

ثم نقول : إنّ العلماء بالأحكام أقسام .

١ – أحدها : من تعلّم لغير الله ، وعلّم لغير الله . فعِلْمُ هذا وتعليمه وبال [4] عليه .

٢ – والـــثاني : من تعلّم لغير الله ، وعلّم لله . فهذا ممّن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . ولا أدري : هل يقوم إحسانه بإساءته أم لا ؟

٣ – الثالث : مِنْ تعلّم لله وعلّم لغير الله . فهذا كالأوّل أو أشدّ إثماً منه .

٤ – الـــرابع : مِـــنْ تعلّم لله ، وعلّم لله . وهو ضربان أحدهما : أنْ لا يعمل بعلمه ، فهذا شقي لا يفضُل على أحد من أولياء الله تعالى .

وإن عمل بعلمه ، فإنْ كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه فهذا من السعداء ، وإنْ كـــان مـــن أهل الأحوال العارفين بالله فهذا من أفضل العارفين ، إذْ حاز ما حازوه ، وفضَل عليهم بمعرفة الأحكام وتعليم أهل الإسلام .

---

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) فاطر ٠٢٨ .

(٣) رواه ابن المنذر عنه رضي الله عنه .

(٤) الوبال : سوء العاقبة .

وأمّا قَوْلُ مَنْ يقول : العمل المتعدّي خير من العمل القاصر فإنّه جاهل بأحكام الله تعالى ، بل للعمل القاصر أحوال :

إحداهــنّ أنْ يكــون أفضـــل من المتعدّي كالتوحيد والإسلام والإيمان بالله وملائكــته وكتــبه ورســله واليوم الآخر ، ، وكذلك الدعائم الخمس إلا الزكاة ، وكذلــك التّسبيح عقيب الصلاة ، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم قدّمه على التصدّق بفضول الأموال (١) ، وهو (٢) متعدّ ، وقال : " أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً " (٣) وقال : " خير أعمالكم الصّلاة " (٤) .

وسئل صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ قال : " إيمان بالله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " جهاد في سبيل الله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور " (٥) . فهذه كلُّها أعمال قاصرة وردت الشريعة بتفضيلها .

القســم الــثاني : ما تكون متعدّية ، كبِرّ الوالدين ، إذْ سئل صلى الله عليه وسلم : أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال : " برّ الوالدَيْن " (٦) .

---

(١) انظر البخاري : صفة الصلاة ، باب الذكر بعد الصلاة ، رقم ٨٠٧ ومسلم : المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصّلاة ٥٩٥ .

(٢) هو : أي التصدّق .

(٣) النّســائي : الصــلاة ، باب أقرب ما يكون العبد من الله عزّ وجلّ ٢ / ٢٢٦ . وأبو داود : الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود ، رقم ٨٧٥ .

(٤) المستدرك ١ / ١٨٩ والرافعي [كنــز العمال ٧ / ١٩٢٦٥] .

(٥) الــبخاري : الإيمان ، باب من قال إنّ الإيمان هو العمل ٢٦ والحج ، باب فضل الحج المبرور ١٤٤٧ ومسلم : الإيمان ، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٣ .

(٦) الــبخاري : مواقيــت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها ٥٠٤ وانظر ٢٦٣٠ و ٥٦٢٥ و ٧٠٩٦ ومسلم : الإيمان ٨٥ .

وليست الصلاةُ بأفضل من كلّ عملٍ متعدّ ، فلو رأى المصلّي غَرِيقاً يقْدِر على إنقــاذه ، أو مؤمناً يُقتل ظلماً ، أو امرأة يُزنى بها ، أو صبياً يُؤتى منه الفاحشة ، وقدر على التخليص والإنقاذ لزمه ذلك مع ضيق الوقت ، لأن رتبته عند الله أفضل من رتبة الصّلاة . والصّلاة إنْ قيل ببطلانها أمكن تداركُها بالقضاء .

فهــذان القســمان مبنيّان على رجحان مصالح الأعمال فإن كانت مصلحة القاصــر أرجحَ من مصلحة المتعدّي فالقاصر أفضلُ من المتعدّي ، وإنْ كانتْ مصلحةُ المتعدّي أرجح قُدّمتْ على القاصر . فتارةً نقف على الرجحان فنقدّم الراجح ، وتارةً يــنصّ الشرْع على تفضيل أحد العملين فنقدّمه وإن لم نقف على رجحانه ، وتارةً لا نقف على الرجحان ولا نجد نصّاً يدلّ على التفضيل فليس لنا أن نجعلَ القاصرَ أفضل مــن المتعدّي ، ولا أن نجعل المتعدّيَ أفضل من القاصر لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرْعيّة ، فإذا لم يظهر شيء من الأدلّة الشرعيّة لم يجز أن نقول على الله ما لا نعلمه أو نظنّه بدلالة شرعيّة .

فائدة :

إذا استوى الناس في المعارف بحيث لا يفضل بعضهم على بعض في ذلك ، فلا فضل لبعضهم على بعض إلّا بتوالي العِرْفان واستمراره ، لأنّ توالي ذلك شرف ، فقد فات البعض وفازَ به البعض .

وكذلــك لا تدوم الأحوال الناشئة عن هذه المعارف إلّا بدوام المعارف ، ولا تدوم الطاعات الناشئة عن الأحوال إلا بدوام الأحوال ، فإذا دام صلاح القلب بدوام المعــارف والأحوال دام صلاح الجسد بحُسْن الأقوال واستقامة الأعمال ، وإذا غلبت الغفلــة عــلى القلــب فسدت الأحوال الناشئة عن المعارف ، ففسد القلب بذلك ، وفسدتْ بفساده الأقوال والأعمال .

والمعارف رُتَبٌ في الفضل والشرف ، يترتّبُ فضل الأحوال الناشئة عنها على رتبها في الفضل والكمال ، وكذلك ما يترتّب عليها من الأقوال والأعمال.

والحـــال الناشئة عن معرفة الجلال والكمال ينشأ عنها أعظم الأعمال ، وهو التعظيم والإجلال .

وملاحظة شدّة الانتقام ينشأ عنها أفضل الأعمال ، وهو التّعظيم والخوف .

وملاحظة سعة الرَّحمة ينشأ عنها الطمع والرجاء .

وملاحظة التوحيد بالنفع والضرّ ينشأ عنها التوكّل على الله في جميع الأحوال .

فالهائـــب أفضل من المحبّ ، والمحبّ أفضل من المتوكّل ، والمتوكّل أفضل من الخائف ، والخائف أفضل من الرّاجي . فهذه من أوصاف العارفين بالله .

* * *

وممـــا يدلّ على فضلهم على الفقهاء ما يُجْريه الله تعالى عليهم من الكرامات الخارقـــة للعـــادات ، ولا يجري شيء من ذلك على يد الفقهاء إلّا أنْ يسلكوا طريق العارفين ويتّصفوا بأوصافهم ، و " ما سبقكم أبو بكر رضي الله عنه بصوم ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر في صدره " [(١)] .

ولا يصحّ قول من قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما فُضّل بأعماله الشّـــاقّة ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فضّل بتكليم الله إيّاه ، تارة على لسان جبريل . وتارة من غير واسطة . وكذلك فضّل بالمعارف والأحوال . ولقد قال صلى الله عليه وسلم : " إني لأرجو أن أكون أعلمكم بالله ، وأشدّكم لله خشيةً " [(٢)] .

---

(١) لم يثبـــت مـــرفوعاً ، وإنّمـــا هو " مقطوع " لبكر بن عبد الله المزني ، وهو تابعي ثقة صالح ، بصري ، متوفى سنة ١٠٨ أو ١٠٦ هـــ [تهذيب التهذيب (بيروت ط٢) ١ / ٣٠٤ الترجمة ٨٨٩] وانظر الأسرار المرفوعة لعلي القاري (مؤسسة الرسالة) ٤٧٦ .

(٢) مسند أحمد ٢٤٢٦٦ و ٢٥١٠٤ و ٢٥٩٦١ ومسلم ٢ / ٧٨١ رقم ١١١٠ وأبو داود : الصوم ، باب فيمن أصبح جنباً في رمضان ٢٣٨٩ .

وكذلك لما احتقر بعضهم قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيامه وصلاته إلى صلاته أنكر ذلك صلى الله عليه وسلم [1] .

فذكر أنّ تفضيله عليهم إنما كان بمعرفته بالله تعالى ، وهذا أكثر جهات تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا مشقّة عليه فيها .

وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لموسى : (إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [2] .

وكيف يفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعماله الشّاقة مع أنّه لا نسبة لأعماله وصبره وتأذّيه تقوم بأعمال نوح وصبره وتأذّيه من قومه .

وما أسرعَ الناس بأن يقولوا ما ليس لهم به علم ، ولو أنهم سألوا إذا جهلوا لكان خيراً لهم " اهـ .

* * *

---

(١) وهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : جاء ثلاثةُ رهْط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلمّا أُخبروا كأنهم تقالّوها . . . وفيه : " أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له . . " [البخاري : النكاح . باب : الترغيب في النكاح ٤٧٧٦ . ومسلم : النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ١٤٠١] تقالّوها : عدّوها قليلة .

(٢) الأعراف ١٤٤ .

(٢٢)

فصـــل

قال أبو طالب المكّيّ في قوت القلوب :

اعلمْ أنّ العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعْه تقليد أحد من العلماء ، وكذلك كان المتقدّمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا مَنْ حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والإفهام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس أحدٌ إلّا يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان (ابن عباس رضي الله عنهما) تعلّم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبيّ بن كعب ، ثم خالف زيداً في الفقه ، وأبياً في القراءة .

وقال بعض الفقهاء من السّلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلْـــناه على الرأس والعين ، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ منه ونترك . وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . قالوا ، ونقول ، ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التّقليد ، ويقولون : لا ينبغي للرجل أن يفتي حتى يعرف اختلاف العلماء فيختار منها الأحْـــوط للدّين والأقوى باليقين ، فلو كانوا يحبّون أنْ يفتيَ العالم بمذهب غيره لم يحْتجْ أنْ يعرف الاختلاف ، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه .

ومِــنْ ثَمَّ قيل : إنّ العبد يُسأل غداً فيقال له : ماذا عملت فيما علمْتَ ؟ (١) ولا يُقـــال له : فيما عَلِمَ غيرك . وقال تعالى : (وقال الذّين أوتوا العلم والإيمان) (٢)

---

(١) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تزول قدما عـــبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمرهِ فيمَ أفناه ؟ وعن علمه ما عمِلَ به ؟ . . . " الحديث [الترمذي : صفة القيامة ، الباب الأوّل ، رقم ٢٤١٩ . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح] .

(٢) الروم ٥٦ .

فقَــرن بينهما ، فدلّ على أنّه مَنْ أُوتيَ إيماناً ويقيناً أُوتيَ علْماً ، كما أنّ مَنْ أُوتيَ علماً نافعاً أوتيَ إيماناً .

وهــذا أحــد الوجوه في معنى قوله تعالى : (كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بــروح منه) [1] أي قوّاهم بعلم الإيمان ، فعلمُ الإيمان هو روحه ، وتكون الهاء عائدة على الإيمان .

وكــذا العــالم الــذي هو من أهل الاستنباط والاستدلال في الكتاب والسنة ومعرفة أداء الصنعة وآلة الصّنع لأنّه ذو تمييز وبصيرة ، ومن أهل التدبُّر والعبرة .

ثم قــال : وقــد كــانَ من هَدْيِ أهل العلم في قعودهم أن يجتمع أحدهم في قعــوده ، وينصــب ركبتــيه ، ومنهم من كان يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتــيه . كذلــك كانــت شمــائِلُ كلّ مَنْ تكلّم في هذا العلم إلى وقت أبي القاسم الجنيد [2] ولذلك رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه كان يقعد القُرْفصاء [3] ويحتبي بيديه [4] .

وأوّل مَنْ قعد على كرسي يحيى بن معاذ الرازي [5] ، وفي زمن الجنيد أبو حمزة البغدادي ، فعاب الأشياخ ذلك عليه ، ولم يكن ذلك سيرة العارفين الذين يتكلّمون في

---

(١) المجادلة ٢٢ .

(٢) الجنــيد بن محمد : من أعلام العلماء أُولي المعرفة الواسعة والوعْي والاستقامة والحِكْمة ومنفعة الناس . توفي سنة ٢٩٧ هـــ .

(٣) زاد المعاد لابن قيّم الجوزيّة (محمد علي صبيح بمصر) ١ / ٠٦٠ .

(٤)المواهبُ اللّدُنّيَة على الشمائل المحمّديّة للبيجوري (مطبعة الاستقامة) ١٠٧ .

(٥) واعظ نيسابوري توفي سنة ٢٥٨ هـــ ، كان يقول : " تَزْكيةُ الأشرار لكَ هُجْنة ، وحبُّهم لكَ عيبٌ عليك " هجنة : قبح ونقص . وقال : العقلاء ثلاثة : مَنْ ترك الدّنيا قبل أنْ تتركه ، وهيّأ قبره قبل أنْ يدخله ، وأرضى خالقه قبل أنْ يلقاه .

علم المعرفة واليقين ، إنّما كان جلوسهم الاحتباء [١] ، وإنّما يجلس متربّعاً النُّحاة وأهل اللغــة وأبنــاء الدُّنــيا من علماء المُفتين ، وهي جلسة المتكبّرين [٢] ، ومن التواضع الاجتماع في الجِلْسة .

ثم قــال : وأصــول مقامــات الــيقين تسعة : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرجاء ، والخوف ، والزهد ، والتوكّل ، والرضى ، والمحبّة . هذا آخر ما لَخَصته من كتاب القوت .

* * *

(١) الاحتباء : أن يجلس على أَلْيَتَيْهِ ، ويضمّ فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ، وقد يُحْتَبى بالثوب أو العمامــة بدلاً من الذراعين . وهو قعود القرفصاء أو القُرْفُصَى ، لكنّ قعدة القرفصاء تطلق أيضــاً عــلى حال الجلوس على الركبتين ، مع لصق البطن بالفخذين ، وتأبّط الكفّين ، وهي جلسةُ الأعراب .

(٢) هي جلسةُ المتكبّرين إذا صحبها اغترار نفسي ، أمّا إنْ راوح بينها وبين الاحتباء والقرفصاء ، تجديداً لنشاطه ، فقد أخرج أبو داود عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه كان رسول الله صلى الله علــيه وســلم إذا صلى الفجر تربّع في مجلسه حتى تطلع الشمس حَسْناً " [جامع الأصول (دار الفكــر) خاتمة كتاب الصلاة (المقام بعد الصلاة) ٦ / ٢٦١ برقم ٤٣٧٠] حسناً : أي طلوعاً حسناً .

(٢٣)

فصـــل

وقال صاحب التعرُّف [١] في خطبته مشيراً إلى هذه الطائفة :

جعـل الله فـيهم صـفوةً وأخياراً ، ونجباء أبراراً ، سبقتْ لهم منه الحُسْنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، وصدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصتْ عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفتْ أسرارهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتتْ أقدامهم وزكتْ أفهامهم ، ونارتْ أعلامهم . فَهِمُوا عن الله ، وسـاروا إلى الله ، وأعرضـوا عمّا سوى الله . خرقَ الحجبَ أنوارُهم . جالت حولَ العـرش أسـرارهم ، وجَلتْ عند ذي العرش أخطارهم ، وعَمِيَتْ عمّا دون العرش أبصـارهم . أجسام روحانيون ، وفي الأرض سماويّون ، ومع الخَلْق ربّانيّون ، سُكوتٌ نُظّـار [٢] ، غُيَّبٌ حُضّار [٣] ، ملوك تحت أطمار ، نُزّاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنـوار دلائل ، آذانهم واعيّة ، وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صَفْوةٌ صوفيّة ، نورية صَفيّة ، ودائع الله بين خليقته ، وصَفْوته في بريّته ، ووصاياه لنبيّه ، وخباياه عند صـفيّه [٤] ، هم في حياته أهل صُفّتِه [٥] ، وبعد وفاته خيار أمّته ، لم يزل يدعو الأوّلُ الثاني ، والسَّابقُ التالي ، بلسان فِعْلِه ، أغناه ذلك عن قوله ، حتى قلّ الرَّغَب ، وفُقِدَ

(١) التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاباذي : محمد بن إبراهيم ت ٣٨٠ هـ .

(٢) نظّار : متأمّلون مستبصرون ، متوسّمون .

(٣) لا يحبّون الظهور ، فكأنهم – ولو حضروا – غائبون ، ومنهم من يحضر في مكان ، وتتجرّد منه نسخة أخرى أو صورة أخرى فتكون في مكان آخر ، بإذن الله .

(٤) صفيه : المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٥) أهـل الصُّفّة : فقراء المسلمين كانوا يأوون إلى مكان مظلّل في المسجد النبوي ويرعى شؤونهم سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم .

الطَّلَـــبُ ، فصـــار الحـــالُ أجوبةً ومسائل ، وكتباً ورسائل ، فالمعاني لأربابها قريبة ، والصـــدور لِفَهْمهـــا رحيـــبة ، إلى أنْ ذهب المعنى ، وبقي الاسم ، وغابت الحقيقة ، وحصل الرسم المفرد

أمّـــا الخيامُ فإنّها كخيامهم   وأرى نساء الحيّ غير نسائها

فصار التحقيق حلية ، والتّصْديق زينة ، وادّعاه من لم يعرفه ، وحَلِيَ به من لم يصفه ، وأنكره بفعله مَنْ أقَرَّ به بلسانه ، وكتمه بصدقه من أظهره ببيانه ، وأدخل فيه ما ليس منه ، ونسب إليه ما ليس فيه ، فجعل حقّه باطلاً ، وسمّي عالمه جاهلاً ، وانفرد المتحقّق به ضَنّاً يه ، وسكت الواصف له غيرةً عليه ، فنفرت القلوب منه ، وانصرفت النفوسُ عنه ، وذهب العلم وأهله والبيانُ وفعله .

* * *

(٢٤)

فصـــــل

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني [١] – وهو من كبار حفّاظ الحديث ومن أهل العـلم بالفقـه والتصـوّف كما ترجمه بذلك ابن السبكي والإسنوي [٢] في طبقات الشافعيّة – في خطبة كتابه الحلية :

أمّا بعد فقد استعنتُ بالله وأجبْتُك إلى ما ابتغَيْتَ من جمع كتاب يتضمّن أسماء جماعة من أعلام المتحقّقين من المتصوّفة وأئمّتهم وترتيب طبقاهم من النّسّاك ومحجّتهم ، من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، ممن عرف الأدلّة والحقائق ، وباشر الأحوال والطرائق ، ساكَنَ الرّياض والحدائق ، وفارق العوارض والعلائق ، وتبرّأ من المتـنطّعين والمـتعمّقين [٣] وأهل الدعاوى من المتسوّفين ، من الكسالى والمتثبّطين [٤] المتشبّهين بهم في اللباس والمقال ، والمخالفين لهم في العقيدة والفعال وذلك لما بلغك من بسـط لساننا وألسنة أهل الفقه والآثار ، في كل القطر والأمصار ، في المنتسبين إليهم مـن الفَسقة الفجّار ، والمباحيّة والحلولية الكفّار ، وليس ما حلّ بالكذَبة من الوقيعة والإنكـار بقادحٍ في منقبة البرَرة الأخيار ، وواضع من درجة الصفوة الأبرار ، بل في إظهـار الـبراءة من الكذّابين ، والنّكير على الخوَنة البَطّالين [٥] ، نزاهة للصادقين ، ورفعـة للمـتحققين ، ولو لم نكشف عن مخازي المُبْطِلين ومساويهم ، ديانةً ، لَلَزِمَنا

---

(١) أحمد بن عبد الله (٣٣٦ – ٤٣٠ هـ) .

(٢) نسـبة إلى إسْـنا ، قال ياقوت : " بالكسر ثم السكون . . مدينة بأقصى الصعيد ، وهي على شاطئ النيل " [معجم البلدان ١ / ١٨٩ (إسنا)] .

(٣) المتنطّعون و المتعمّقون : المغالون المتكلّفون ، والمتشدّقون في كلامهم .

(٤) تثبّط : تعوّق .

(٥) البَطّال : من لا شُغْلَ له .

إبانتها وإشاعتها حميّة وصيانة ، إذْ لأسلافنا في التصوُّف العَلَمُ المنشور والصّيتُ والذِّكْر المشهور فقد كان جدّي محمد بن يوسف البنّا أحد من نشر الله به ذكْرَ بعض المنقطعين إليه ، وعَمَرَ به أحوال كثير من المُقْبلين عليه ، وكيف نَسْتجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مُؤْذَنٌ بمحاربة الله تعالى (١) ؟ هذا آخر كلام أبي نعيم .

* * *

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله قال : من عادى لي وليّاً فقد آذنْته بالحرب . . " [البخاري : الرقاق ، باب التواضع ، رقم ٦١٣٧] .

(٢٥)

فصل

وقال الشيخ قطب الدّين محمد بن أحمد بن علي القَسْطلاني (١) – أحد أئمة الشافعيّة ، وأحد أئمّة الحديث ، وأحد أئمّة التصوُّف ، أخذ عن السُّهْرَوَرْديّ (٢) ، واجتمع بالشاذليّ ، وترجمه الإسنويّ في الطبقات ، فقال : كان ممن جمع العلم والعمل والهيبة والورع والكرم ، وطلب من مكّة ، وفوّضتْ له مشيخة دار الحديث الكامليّة بالقاهرة ، إلى أن مات بِها في المحرّم سنة ٦٨٦ ستٌ وثمانين وستمئة – في كتاب له في التصوُّف سمّاه : " اقتداء الغافل بالعاقل " ما ملخّصه : إنّ الله بحكمته ونعمته أقام في كل عصر مِنْ جعل له لساناً معبّراً عن عوارف المعارف (٣) ، مخبراً عن لطائف العواطف ، يقطع به ما اتّصَلَ من الجهل ، ويُخمد به ما ثار من السُّخْف ، ويُنير به ما أظلم من هوَس النفس (٤) ، ويحقّق به ما اضطرب من رأي الهوى ، وإنّا لَمّا دفعنا في وقتنا هذا إلى زمن طال فيه على أرباب الفضائل أرباب الرذائل ، وجال فيه بالمقال على الأماثل (٥) مَنْ ليس لهم بالمُمَاثل ، تعيّن علينا أنْ نُفصح لأهل الوسائل ، وتبيّن لنا

---

(١) أبو بكر القسطلّاني (٦١٤ – ٦٨٦ هـ) صاحب " اقتداء الغافل باهتداء العاقل " . وهو غير أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١ – ٩٢٣ هـ) المشهور بكتابه : " إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري " .

(٢) عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدي (٥٣٩ – ٦٣٢ هـ) من كبار علماء بغداد ، له كتاب ذائع هو " عوارف المعارف " . وهو غير يحيى بن حبش السّهروردي الذي قُتل في حلب سنة ٥٨٧ هـ بأمر من السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان العلماء قد أفتَوْا بقتله لابتداعه ومروقه ، وأقنعوا السلطان المجاهد صلاح الدين الأيوبي باستحقاق السُّهْرَوَرْديّ أنْ يُقتَل .

(٣) عوارف : ج عارفة ، وهي الإحسان والفَضْل . المعارف : ج : معرفة . عوارف المعارف : فضل المعرفة بالله تعالى وفوائدها .

(٤) الهوَس : طَرَفٌ من الجنون .

(٥) أماثل القوم : خيارهم .

أنْ نوضح ما التبس على الأفاضل ببيان الحقّ لمن أعرض عنه لمّا جهله ، وتقريب الطريق عمّنْ قصد أن يصله . .

– إلى أن قال – : فلمّا أمر الله بالاقتفاء لأهل الاصطفاء ، والاقتداء بذوي الاهتداء ، ورأيت ما ظهر في زماننا هذا من اعتناء العوامّ بأهل الادّعاء والاتّباع للأهواء ، لِفَقْدِ نُوْرِ العِرْفان المميِّز بين مراتب الأصفياء ، بذلْتُ ما في الوسع من النُّصْح للجاهل ، وأقمْتُ ما رسمت في هذا الموضع مقام الحكم الفاصل ، نوضح فيه ما التبس من حال العالم بالجاهل ، والنّاقص بالفاضل ، والحالي بالعاطل [1] ، ونُفصح فيه بيان الفَرْق بين طرق الحقّ والباطل في سيرة مَنْ ظهر في زيّ القوم في الخِدْمة والصوْرة وهو عن المَغْنى [2] المَغْنِيّ بالاعتناء به بينهم زائل ، وعلى المراعاة لرعونات نفسه عاكف ، وفي فسح المجال في ضلالها جائل ، وعن تأدُّبها بالآداب المرعية في طريق الأبواب المَرْضِية حائل [3] .

وقد دفعنا لوقت ظهر فيه اللَّغط [4] ، وكثر فيه الغلط واشتهر في أفعال أهله الشَّطط [5] ، ولا سيما من أُجري عليه من الصلحاء رسم التصوُّف واسم الفقراء ، فإنّ هذا اسم من أعزّ الأسماء ، والمتّصف بصفة أهله عظيم قَدْرُهُ عند ربّ السّماء ، لكنّ تلك النعوت المعهودة تبدّلتْ بضدّها ، والأخلاق المحمودة منهم عادتْ ذميمة عند عدّها ،وجُلّهم بل أجَلُّهم يدعى سلوك الطّريق ، وما مشى على حدّها ، فلا مصطلح القوم يعلمون ، ولا بما مضى من سيرهم يعملون ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . أشبهوهم بالظّاهر في الصورة ، وباينوهم في السّيرة ، في المعاني المستورة ،

---

(١) الحالي : ذو الزّينة . العاطل : الذي لا حُلِيّ له .

(٢) المَغْنى : المقام .

(٣) حائل : متغيّر ، غير ثابت .

(٤) اللّغط : الصوت والجلبة بأصوات مختلطة لا تُفْهم (جعجعة لا جدوى لها) .

(٥) الشّطط : البُعْد (عن الحقّ) ومجاوزة الحدّ .

فهم كما قال القائل :

أمّـا الخيامُ فإنّها كخيامهم ... وأرى نساء الحيّ غَيرِ نسائها

ظـنّوا أنّ الفقـر والتّصوّف أذكار مشهورة ، ومنامات مستورة ، وخيالات مذكورة ، فتقيّدتْ بهم أذهانٌ محصورة ، وأفكار مأسورة ، لم تصحبْ فحولَ الرّجال ، ولم تشـربْ من ماء المعارف الزُّلال (١) زلّتْ منها الأقدام ، وتحكّمتْ فيها الأوهام ، وجعلـوا التّلَـبُّسَ بشعار الفَقْر مأكلَةً (٢) والتقدّس بذكر الله بينهم مَشْغلة ، والتأنّسَ بالمعاشرة عن المبادرة للطّاعة مَكْسَلة . وتلك حالةٌ لمن تأمّلها مُشْكلة ، وفتنةٌ لمن تعقّلها مُذْهلَـة . ولكـنْ طَـبَع الله على قلوبهمْ فكانوا من الغافلين ، وختم على سمعهم فلم يكونـوا للنّصيحة بالقابلين ، ولا للعدول عن الضّلال للهدى بالعائدين . فقد سمعت والدي أبا العباس القسطّلاني يقول : سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول لو لمْ ألْقَ مـن المشايخ مَنْ لقيت لتوهّمتُ أنّ الطّريقَ ما عليه النّاس اليوم ، وما عند الناس من الطـريق إلاّ الاسـم ، إلاّ مَنْ سَلَكَ منهم على التحّقيق فإذا قال هذا في عصره ، فما ظنّك بهذا العصر ؟

هذا كلُّه كلام القطب القسطلاّني .

ثم قـال : اعلمْ أنّ الله أقام هذا الدّين ، وأيّد هذه الشريعة المطهّرة بطائفتين : علماء الظاهـر ، وعـلماء الـباطن . ولّمـا شاهدْنا في هذه الطائفة الخَلَلَ في عصرنا حدانا ذلـك على النُصْح والتَفقُّهِ لِمَنْ يَرْغَبُ في الإهداء ببيان رُتْبة الدّاعين ، وما يقصده من يُعَدُّ لجناب الله من السّاعين .

---

(١) الزلازل : الماء العذب الصافي .

(٢) وانظـر انتقاد التكسُّب بالطّريقة في الرسالة الكيزوانية " الأقسام العشرة " لعلي الكيزواني (مـن متصـوّفة القـرن العاشـر) ص ٦ والإبـداع في مضارّ الابتداع للشيخ علي محفوظ (ط٤) ص ٣٠١ .

أمّـا رُتْـبةُ الدّاعـي فإنّهـا من أعلى الرُّتب ، وهي رُتبَةُ الأنبياء والأولياء والحكماء ، كما قال الله تعالى : (ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسَنة)[1] فسـعتْ هـذه الطائفـة إلى الدّعاء إلى الله ، ورأتْ أنّ ذلك من باب تكثير الخير في الوجـود . وتوقّفـتْ طائفـة عـن ذلك لاشتغالها في حقّ نفسها بما هو الأولى من التوجُّه لها .

والأَوْلى أنْ يُقال : إنْ كانت الهمّة قد اشتغلتْ بالله حتى أُقيمتْ داعية له بغير معانـاة أسـباب من خارج فإنّه يتعيَّن الإجابة . وإنْ كانت الهمّة على الدعاء غافلة ، فإنّها محجوبة جاهلة ، ولحظوظها من طلب الظّهور واصلة .

وقد حصل الجهل في زماننا هذا برتبة الدّاعي ، والنظر في ذلك من الأمر المهمّ في الدّين ، لكيلا يلتبس طريق المحقّين بطريق المُبْطلين .

فإذاً للتمييز بين الدعاة فائدة عظيمة في هذا الشّأن ، فالدُّعاةُ أربعة : داع بالله إلى الله ، وداعٍ بـالله إلى سنة الله ، وداعٍ بالله إلى حكمة الله ، وداعٍ إلى حظوظ نفسِه بطريق الله .

فالداعي إلى الله هو المقرَّب الملحُوظ ، المُفارقُ للحُظوظ ، يدعو إلى الصّدْق في العمل ، والإخلاص ، ويَهْدي مَنْ ضَلّ إلى طريق المعرفة بالله ، والاختصاص .

والدّاعـي إلى سـنّة الله ، وهـي العلم بالأحكام من الحلال والحرام مُبَصِّرٌ للسّالكين بطريق المهتدين السابقين .

والداعي إلى حكمة الله هو الدّاعي إلى العلم بأحكام الظّاهر والباطن من علم الشـريعة والحقـيقة ، ببيان علم الخواطر وعِلَلِها ، وصفات النّفوس وآفاتها ، وطرق البحث عن دسائسها .

فـالداعيَ إلى الله أقلُّهم تابعاً ، لمشقّة ما دعا إليه . والداعي إلى سُنّة الله تابعُه كثير ، لممازجة النفس فيما تأتي به من الأفعال ، وطلب الأعواض على الأعمال .

---

(١) النّحل ١٢٥ .

والداعي إلى حكمةِ الله أقلُّ تابعاً منه لعزّة الوصول إلى ما يدعو إليه من طهارة النفس و تزكيتها .

وأمـــا الرابع ، وهو الدّاعي لحظوظ نفسه بِطَرِيق ربّه فباطنه معلول بالآفات ، وسِرّه مشحون بالجهالات . إلى أن قال : ثمّ الدُّعاةُ على وجوه :

أحدهـــا : داعٍ إلى الغِــنَى بالله من حيث اعتناؤه بالإيجاد له ابتداء ، كما قال تعالى : (وقد خلقتُك من قبل ولم تكُ شيئاً) [1] .

وثانيها : داع بالفقر إلى الله ، فإن ذلك وظيفة العبوديّة .

وثالــثها : داعٍ بالأخلاق الرحيمة ، كما قيل : تخلّقوا بأخلاق الله . أي من الرَّحْمة والحِلْم والجود والعفو ، ونحو ذلك . وهذه هي أجلُّ الدَّعوات .

ثم قــال : وإنّ طريق القوم لّما اندرس رسمه وبقي اسمه ذهبتْ عصابتُه وصاروا آحـــاداً فِي البلاد ، وأفراداً فِي الجِدّ والاجتهاد ، فهمْ خاصّةُ اللهِ من خَلْقِه ، وخلاصته المختارون في أرضه ، لإقامةِ حقّه ، طهّرَ أسرارهم ، ونوّر أفكارهم ، فهم الدّاعون إلى بابه ، المعروفون بعليّ جنابه ، الموقَفُون على ما أشكل من علم الطَّريق على أربابه .

وقـــد حرس الله هذه الطّائفة عن امتداد يد المتلاعب بما أقام لها من الرؤساء العـــالمين بها ، يذبُّون عنها طَغَي الطّاغي وجهل الجاهل ، ويميزون بين المنقطع عن الله والواصـــل ، ويعـــرفون سلوك الطَّرِيق لطالبه ، ويُوقفون على الصواب مَنْ لم يَهْتَدِ إلى مذاهبه . لا يبالون باعتراض جاهل أو عالم ، ولا تأخذُهم في الله لومةُ لائم .

وعلـــومُ هذه الطائفة تشارك باقيَ العلوم في العقل والنَّقْل والمفهوم ، وتتميّز عنها بالذوق والمنازلة ، والوجد في المعاملة .

إلى أن قال : واعلم أنّ طائفة المتوجّهين [2] امتُحنوا بثلاثة أصناف يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً :

---

(١) مريم ٩ .

(٢) أي المتوجّهين إلى الله ، المقبلين على عبادته . يريد : الصّوفية .

(١) – بمُنكر لطريقهم وأحوالهم .

(٢) – وبمعـــترف بها ، عالمٍ ذَلْقِ اللسان ، طَلْق البيان ، أدخل فيها ما ليس منها ، وأوهم أنّ ذلك العلم هو عين التحقيق المتعيّن فيها .

(٣) – وبمعـــترف بهـــا جـــاهل بآدابها وشروطها ، اتّخذ أتباعاً ، وقرَّر لها أوضاعاً .

الصنف الأول المنكر لعلوم هذه الطائفة ، الواقف مع غرور نفسه ، فهذا عدوّ ظاهر ، واجتنابه سهل .

الصـــنف الـــثاني : العـــالم المعترف ظاهراً بالطَّريق ، المغترف بزعمه من بحر التَّحْقيق ، الذي اشتغل بعلوم الأوائل [١] ، وأوهم أنّها داخلة في علوم القوم ، راجحة في معـــتقَدِه عـــلى علـــوم الشريعة . أعطيَ لساناً معبّراً عن مقاصده ، مترجماً عمّا في ضميره ، واصطلح مع نفسه وأتباعه مصطلحاً في أوضاعه ، وقرَّر في أذهانهم أنّه المشار إليه في عصره ، وأنّ الـــمَدار عليه في طَيِّه للعلوم ونَشْره ، وأنّ الخلائق كلهم يغترفون العلـــوم من بحره . وهم جماعة زعموا أنّهم جاسوا [٢] خلال ديار المعارف ، فأفسدوا بذلك عقائد مَنْ صحبهم من الطَّوائف ، واعتقدوا قِدَمَ الأرواح والأشباح ، وامتزاج الموجـــودات المتماثلة والمتضادّة أزَلاً وأبداً ، وأنّ كلّ شيء مشكل في الصورة هو عين المتشكّل الآخر ، كالفيل المتشكّل مع البقّة . . إلى هذيان لا يقوله محصّل ، ولا يعتمد عليه مَنْ هو للفرق بين الحقّ والباطل متأمّل ، وأوهموا أنّ ذلك هو الوحدة ، وأنه عين التَّحْقـــيق المشـــار إليه وهو علم الإحاطة الذي مَنْ لم يعتقدْ صحّته قصر فهمه وكثر وهمه ، وكان محجوباً عن العلوم الإلهيّة والمكاشفات الغيبيّة .

---

(١) الأوائل : القدماء ، وعلوم الأوائل مصطلح يراد منه فلسفة اليونان .

(٢) جاسوا خلال ديار : تردّدوا بينها ، طافوا .

وهـــذا القولُ منهم دعوى لا برهان يعضدها ولا إيمان يُشيدها ، اغترّ بها من اســتمع ما ألقَوْه إليه ، ونبا عنها فَهْمُ من استقرّ الحقّ لديه ، وهؤلاء هم مُباينون لعلم التّحقــيق ، محافظون على المباعدة لدقيق التوفيق ، تخطّوْا بزخرف المقال رقاب أرباب المقامــات والأحــوال ، واعتقدوا فيهم أنّهم من الجهّال الضُّلال ، فكانوا نقمةً على المستمعين وفتنةً على المتوجّهين .

الصــنف الثالــث : الجاهل بعلوم هذه العصابة ، الذي جعل التلبُّس بما هو شــعارهم وســيلة إلى أغراضــه وبلوغ مرامه ، فمن لم يشتغل بعلوم النفوس وآفاتها ومصادرها ومواردها في صفاتها ، ويعمل على تزكية نفسه وطهارتها ، فإنّه يعدّ لمعرفة علم السلوك من الجاهلين ، ولا يكون لهذه الطريقة من الوارثين .

فهــؤلاء الأصناف المذكورون فتنة على العوام والخواصّ ، ومحنة يُبْعَدُ منها ، ولا سيّما في هذا الوقت الخاصّ (١) .

فــإذا تبــيّن وصــف هــؤلاء للعاقل تعيّن عليه أنْ يعلم وصف حال الرجل الكــامل ، وهــو الشخص الذي فوتح قلبه بإقبال الإنابة ، فدخل من باب التّوبة إلى الإجابــة ، ثمّ جــاهد نفسه في خَلْوَتِه وعزلته بالانفراد ، ثم صاحب التقوى والورع والزهد في سيرته ، ثمّ ترقى إلى المقامات والأحوال ، ثم إلى مقام المعرفة ، ثمّ عمل على تَــرْك مُراداته واجتناب الملاحظة لحظوظه ، فصار عبداً حقاً آثر الله على ما سواه في سِرّه ونجواه ، ولم يعتمد في أمره شيئاً من هواه .

---

(١) هذا النقد الذاتي لمثالب التصوّف ، عند القسطلاني وسابقيه ممّن تقدّمت أقوالهم ، يلتقي وآراء غــير المتصوّفة في الأخذ على كل ما يخالف الشريعة الغرّاء ممّن أُثر عن بعض المنتسبين إلى هذه الطائفــة . انظر : التّصوف الإسلامي لعبد الدايم البقري الأنصاري (مكتبة الخانجي) والآداب الشــرعيّة للمقدســي : محمــد بن مفلح (مطبعة المنار) وتلبيس إبليس لابن الجوزي (إدارة الطــباعة المــنيريّة) الباب العاشر : تلبيسه على الصوفيّة . والإبداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ (مطبعة الاستقامة) . . . .

وهـذا الصـنف هـو الذي رحل في الطريق بالأدب ، فأمِنَ في الفريق من العطـب ، ولم يتوثّـبْ إلى طلب الرُّتب . فإنّ هذه الطائفة لم تأخذ في هذا المنهج عن جهالـة ، بـل عن علم ودلالة ، وقد تقدّم لها مشايخ فحول وأئمة جمعوا بين علمي الظاهر والباطن من الفروع والأصول .

إلى أن قـال : وحاصل هذا الطريق يرجع إلى فقد ووجد . وجد بالله وفَقْد لما سواه .

ثم قـال : والعجب ممن هو جاهل ، ربّى نفسه ، وصحب من هو مثله ، ولم يـتأدّب بـآداب الظاهـر ، الذي هو الشرع ، ولا بآداب الباطن ، الذي هو مراقبة الخواطر ، كيف يتخيّل في ذهنه أنْ يكون داعياً إلى الله ، مؤدباً لعباد الله ؟

وقـد تقـدّم قبلـنا من مشايخ الطَّريق الكلام على مَنْ تعاطى في سيره غير سيرهم ، وتقاضى بأفعاله ما يعدّ به خارجاً عن طريقتهم .

وقال أبو بكر محمد بن عبد العزيز المروزي : سمعتُ الواسطي – هو أبو بكر محمد بن موسى [1] – يقول : جعلوا سوء أدبهم أخلاقاً ، وشِرَّةَ نفوسهم [2] انبساطاً ، ودناءة الهمم جَلادة ، فعَمُوا عن الطَّريق ، وسلكوا فيه المضيق .

وقال أبو بكر الطمستاني [3] : الطريق واضح ، والكتاب والسّنة بين أظهرنا ، وفضـل الصَّحابة معلوم بسبقهم إلى الهجرة ، وبصحبتهم ، فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرّب عن نفسه والخَلْق ، وهاجر بقلبه إلى الله ، فهو الصَّادق المصيب .

وقـال أبـو العـباس الدينوري : نقضوا أركان التصوّف ، وهدموا سُبُلَها ، وغـيّروا معانيها بأسماء أحدثوها ، سمّوا الطمع إخلاصاً ، والخروج عن الحق شطحاً ، والتَّلذّذ بالمذموم صَوْلة ، والبخل جلادة ، والسؤال عملاً ، وبذاءة اللّسان ملامة ، وما كان هذا طريق القوم .

---

(١) من أتباع الجنيد ، ومن أفضل من تكلّم في التصوّف . مات سنة ٣٣١ هـ .

(٢) شِرَّةُ نفوسهم : ميلها إلى الشرّ ، وهو السوء والفساد .

(٣) كان من أجلّ المشايخ وأعلاهم حالاً . مات في نيسابور سنة ٣٤٠ هـ .

ولو تتبّعنا أقوال المشايخ في ذلك أطلنا .

ثم قـــال : وقد ألّف مشايخ من هذه الطائفة كتباً ذكروا فيها الأسانيد ، كأبي نصـــر عـــبد الله بن علي السرّاج في كتاب اللمع ، وأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السـلمي في كتاب مقامات الأولياء ، وأبي القاسم القشيري في كتاب الرسالة ، وأبي بكر محمد بن علي الغازي المطوّعي في كتاب المقالات ، وغيرهم .

وإنمـــا فعلوا ذلك إرغاماً لأنفِ مُنْكر تعاطِي ردّ مقالهم ، ورداً على مدّعي أنّ هـــذا العلم لم يردْ به الكتاب والسّنة فقصدوا أنّهم قد اشتغلوا به كما اشتغل به أهل الظاهر من علم الإسناد ، وأنّهم فاتوهم [1] بما لم يصلْ إليه فهمهم من علم أهل القُرْب والوداد .

ثم قـــال : واعلمْ أنّ العلم منه المحمودُ والمذموم . فالمحمود ما أدّى إلى طهارة الـنفس وتزكيـتها ، قـــال تعالى : (قد أَفْلَحَ من زكّاها . وقد خاب من دسّاها) [2] والمذموم ما دعاها إلى الكِبْرِ والعُجْب وحُبّ الشّرف والرّفعة والحسد وغير ذلك .

والعلوم المأمور بطلبها قسمان : علم بالله ، وعلم بأحكام الله . فالأوّل : العلم بأسمائه تعالى وصفاته وأفعاله ، وما يجب ويجوز ويستحيل في حقّه .

والـثاني قسـمان : علم بأحكام الدّنيا المتعلّقة بأحكام المكلّفين وعلم بأحكام الآخـرة في المـنعّمين والمعذّبين ، ثمّ أحكام المكلّفين على ضربين : ظاهر وباطن . أمّا الظاهر فعلمُ أحكام الأمر والنّهْي ، وهو علم الفقه . وأما الباطن فعلم الخواطر ، وتمييز الصحيح منها من الفاسد ، والممدوح من المذموم .

إلى أنْ قـــال : ومدار علم الباطن على الخشية ، فعلى عِظَمِ الخشيةِ في الصّدْر وتمكينها من القلب تتكثّر المعارف فيه ، وتتـــزل السّكينة عليه ، وقال تعالى : (إنّما يَخْشَـــى الله من عباده العلماء) [3] . وعلى قَدْر تمكُّن الخشية من القلب يكون العلم

---

(١) فاتوهم : سبقوهم .

(٢) الشمس ٩ و ١٠ .

(٣) فاطر ٢٨ .

بـــالله ســـبحانه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " والله إنّي لأعرفكم بالله وأشدُّكم خوفاً منه " [1] .

ولا تكون الخشية إلا للعالم بالله ، فالخشية باعثة على الجدّ في العمل ، قاطعة لما اتصـــل من الأمل ، زائدة فيما تحصّل في القلب من الوجل . وقال سهل : الدّنيا كلّها جهـــل إلا ما كان منها علماً ، والعلم كلّه حُجّة ، إلّا ما كان منه عملاً والعمل كلّه موقوف إلا ما كان منه إخلاصاً ، والإخلاص كلّه مردود إلا ما كان منه بالسّنّة .

فـــإذا عُلِمَ شَرَفُ علم الباطن فإنه يدور على أصلين : علم بالله وتصرّفاته في مصـــنوعاته وإحكامـــه لمـــا أتقـــن مـــن مخترعاته وعلم بالنفوس ومراتبها ، وتمامها ونقصها ، ومحاسنها ومعايبها ، ولأجل هذا قال تعالى:(وفي أنفسكم أفلا تُبصرون)[2] .

وأحكـــام النّفوس منحصرة في وصفين . الأوّل : إزالةُ النَّقْص ، مثل مُجانبة الحســـد والكِبْر والغضب والغِلّ [3] والغش والطمع والحقد والعجز والبخل والشّحّ والـــرياء والخـــداع والحـــرْص والمكر والقحة [4] والخيانة والقسوة والغلطة والغفلة والعجلة والحِدّة والفخر والخيلاء والمباهاة والمنافسة واحتقار الخَلْق وسوء الأدب وسوء الخُلُـــق وحبّ الثّناء والرَّغبة في الشُّكْر والتصنُّع للخَلْق واتباع الهوى والتجبّر وطول الأمـــل والشـــرّ والبطر والبغي والظلم العناد والغيبة والنميمة وطلب المغالبة بالباطل وذكْر معايب الخلق وخلوّ القلب من الحزن ، والفرح بالعاجل والحزن على الغائب

---

(١) الـــبخاري : الإيمـــان ، بـــاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أعلمكم بالله " رقم ٢٠ والأدب ، بـــاب من لم يواجه الناس بالعتاب ، رقم ٥٧٥٠ والاعتصام بالكتاب والسّنّة ، باب مـــا يكـــره مـــن التعمُّق والتنازع في العلم ، والغلوّ في الدّين والبدع ٦٨٧١ وانظر موسوعة أطراف الحديث ١٠ / ٣٩٢ وما بعدها .

(٢) الذاريات ٢١ .

(٣) الغل : العداوة والحقد الكامن .

(٤) الوَقَحُ والقِحَةُ والوقاحة : قلة الحياء والاجتراء على اقتراف القبائح ، دون مبالاة .

والاعــتراض عــلى تدبــير الله ، وما ضاهى [١] ذلك من الخصال الذميمة والأفعال القبيحة [٢] .

فحــقٌّ عــلى كلّ مسلم أن يتفقّد نفسه منها وينــزّهها عنها فإنّها داعيةٌ إلى الهلكات ، ومنها ينشأ ردّ الأعمال الصّالحات .

الثاني : تحصيل الكمال ، كمجاهدة النفس والتقوى والورع والزهد والشكر والصــبر والقناعة والرضا واليقين والتوكّل والتفويض والتسليم والإحسان والصدق والإخــلاص والنــيّة ورؤيــة المِنّة لله ، والاحتساب في الأعمال ، والسخاء والشفقَة وسلامة الصدر ، والمبادرة للأمر ، والخشوع والتواضع والمراقبة والمحاسبة وحسن الظّنّ بالله وحسن الطّاعة وحسن الخُلق وحسن المعاشرة للخَلْق ، وحُسْن المعرفة بالله ، وغير ذلــك مــن صفات الكمال ، فإذا نُفي المذموم وأثبت المحمود من هذه الصفات ترقّى عــنها إلى التّوْبة عن الزّلات ثم إلى المحاسبة لنفسه على الهفوات ، ثمّ إلى المراقبة إلى ما يصــدر مــنه من الخطَرات ، ثم إلى الفكْرة فيما يتعلّق بالله من صفات الفعل وصفات الــذّات ، ثمّ إلى التخلُّق بالصّفات ، فيتخلّق من الرحمة باسمه الرحيم ، ومن الإحسان باسمــه المحســن ، ومِــنْ نفع العباد باسمه النافع ، ومن المضرّة لمنْ يستحقّ الضّرّ من الكفّــار ، بالقتل والسَّبي والأسر ، ومن المسلمين العصاة بإقامة الحدود ونحوها باسمه الضّــارّ ، وكذلــك بــاقي الأسمــاء يــتخلّق بكــل اســم منها فيما هو به لائق .

---

(١) ضاهى : شابَهَ .

(٢) حصــرها محمــد عــلي البركلي في ستين خُلقاً نفسياً مذموماً درسها بتوّسع في آفات القلب ومــنكراته ، عدا آفات اللسان . انظر كتابه الطريقة المحمدّية ، الذي سيصدر قريباً إنْ شاء الله تعالى بشرحي وتحقيقي .

فـإذا حصل منها التخلق المذكور ترقّى إلى الاعتبار بتأثيرها في الموجودات ، ووجـود سِـراية [1] أسرارها في المصنوعات . ثمّ ترقّى عن ذلك إلى الاعتبار في نعمة الإيجاد ، وسَبْق الخذلان والعنايات [2] . ثمّ ترقّى عن ذلك إلى الفناء في شهود الذّات الصّـادر عنها أنواع المُبْدَعات . ثم ترقّى عن رؤية الإرادات وفتنة المرادات ، ثم ألقى نفسه بين يدي مدبّرها كأنه بعض الجمادات ، فهنالك تنتهي غاية الرغبات ، وتتوقّف الفكْرة عن منازعات الطَّلبات .

وقـد أوضـح معنى ما ذكرْناه مَنْ تقدَّمنا من السادات ، قال سهل بن عبد الله : أول مـا يُؤْمَـرُ به المُرِيد التبرّي من الحركات المذمومة ، ثمّ التنقّل إلى الحركات المحمـودة ، ثم التفرُّد لأمر الله ، ثمّ التوقّف ، ثمّ الرشاد ، ثم الفناء ثم البيان ثم الثناء ثم القـرب ثم المناجاة ثمّ المصافاة ثمّ الموالاة . ولا يستقرّ هذا بقلبه حتى يرجع إلى إيمانه ، فيكون العلم والقدرة زاده ، والرضى والتسليم مُراده ، والتفويض والتوكّل حاله ، ثمّ يمنّ الله بعد هذا بالمعْرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرّئين من الحول والقوّة . وهذا مقام حَملة العَرْش . وليس بعده مقام .

وقـال يحيى بن معاذ : قناطر العالمين سبع : أولها التّوبة ثم الزهد ثم الخوف ثم الشّـوق ثم الرضـى ثم المحبة ثم المعرفة . بالتوبة تَطهّروا من الذنوب ، وبالزهد زايلوا الدنـيا ، وبـالخوف جاوزوا قناطر النار ، وبالشّوق دخلوا الجنّة ، وبالرضى لبسوا

---

(١) سِراية (بكسر السين) مصدر سرَى : ذهب ومضى .

(٢) قال : صلى الله عليه وسلم : " السعيد من سَعِدَ في بطن أمه ، والشَقيّ مَنْ شَقِيَ في بطن أمه " [مسلم : القدر ، باب كيفية خلق الآدمي ، رقم ٢٦٤٥ . وفي جوهرة التوحيد :

فـوزُ السَّـعيدِ عـنده في الأزَلِ ... كـذا الشَّـقِيُّ ثمّ لم يَنْـتقِلِ

قـــراطق العبوديّة [1] ، وبالحبّ وجدوا طعم النعيم ، وبالمعرفة وصلوا إلى ما طلبوا من الدّنيا والآخرة .

فـإذا اعـتمد مـا ذكرْناه من الحالات فقد انطوى له في ذلك علم الأحوال والمقامات . ثمّ التوصّلُ إلى هذه الحالات تارةً يكون عنْ جذب ربّانيّ بأنْ يقذف الله في قلبه ذلك بغير مُوْقِف ولا معرِّف ، وتارةً عن سلوك عِرْفانيّ ، فيكون عن مبصّر بحكم الطريق ، مُخبر عن علم الفريق .

إلى أنْ قـال : فمـن كانتْ لله به عناية أُلْهمه التّفقّد لخواطره فيتّقي المكروه ويثبـت المحمـود ، فـيكون بذلك لربّه مطيعاً ، ومَنْ أهمل نفسَه وغَفَلَ عنها واتبع هواجسها وعمل على مقاصدها هلك مع الهالكين .

والعُجْـبُ بالآراء والعلوم والأعمال أعظم آفة تردُ على ذوي المراتب . قال أبـو عثمان الحيري : العُجْبُ يتولّد عن رؤية النفس وذكْرها ورؤية الخلْق وذكْرهم . وقال يوسف بن الحسين : يتولّد الإعجاب بالعمل من نسْيان رؤية المِنّة فيما يُجري الله لك من الطّاعات .

ثم قال : واعلموا أنّ الناس قبلنا صنّفوا فيما يلزم مَنْ يسلك هذا الطريق من الآداب ، ومـا يتعـيّنُ علـيه مـن المراعاة لمخالفة العوائد في الوقوف مع الحظوظ والأسباب ، وما يُثمر له ذلك من الحُسْنَى في دار المآب ، فلو اهتدى السالكون بشيء من طُرق الصّواب نظروا في كتبهم ، وسمعوا ما ألقوه لهم من الخطاب ، لكنهم قالوا : إنّ نظر الفقير في الكتب وطلَب العلم من أعظم الحجاب . وما ذكروه فهو كلمةُ حقّ أريـد بهـا باطل ، وصفةُ نقص تحلّى بها مَنْ هو عن الكمال عاطل ، وإنّما ذكر أهل الطّـريق ذلـك في قوم من صفتهم ألهم حصلوا ما تميّزوا به عن أهل هذا الشّأن من الشريعة والحقيقة ، فاستغنَوْا عن النّظر في غير ذاهم ، وفتحوا عن الغيب بما يشهد لهم

---

(١) قراطق : ملابس . وفي القاموس المحيط : " قرطقْته فتقرطق : ألبسْته إياه فلبسه " .

بنجاتهم ، فهم بالله مع الله معرضون عن ملاحظة صفاتهم . طهّروا عن ملاحظة أنجاس الأغيار ، وستروا عن الشّهوة لّما صفا وقتهم عن الأكدار . فهم كما قال بعض الألباء : طنين الذّباب ، وصريرُ الباب يشوّش على ذوي الألباب . فمن كان كذلك فإنّه مشغولٌ بما هو فيه عن النظر في الكتاب .

وأما مَنْ هو عري عن علم الظاهر والباطن فحقّه أن يعلم ما يحتاج إليه في الطّريق التي يسلكها ، فإنْ أبى واستكبر فإنه بعيد من الوصول إلى منهج السّعادة .

ثم قال : اعلمْ أنّ العلوم المطلوبة تنقسم إلى علم وعمل ، كالفقه والطّبّ وغير ذلك . وكذلك علم هذه الطّائفة ينقسم إلى علم بمصطلح أهلها ، وإلى عمل بأخلاقها . وقد اختلف أهل الطّريق في الفقر والتّصوّف والفقير والصوفي : فهل هما سواء أو أحدهما أتمّ من الآخر ؟ فقال قوم : هما سواء .

وقيل : الفقر أعلى ، لأنّ الكتاب والسّنّة نطقا به ، واسم التّصوّف مُحْدَث لم يكن يُعهد في السّلف الصالح إطلاقه ، والذي عليه أكثر أئمة هذا الشأن ، ورجّحه شيخنا الشهاب السهروردي [1] أنّ اسم التصوّف والصّوفي أعلى مرتبةً وأوْلى نسبةً ، وأخصّ بالمعنى المراد .

لأنّ الفقير يُطلق عموماً على من افتقر من المال ، وخصوصاً على من افتقر بكلّيتّه إلى الله في جميع الأحوال ، والتّصوّف إنّما يُطلقُ على الفقير الخاصّ بزيادة أوصاف أخَرَ . وأيضاً فالفقير هو الشخص المتمسك بعُرْوَةِ فَقْرِه ، المستشرف بطلب أعواض المثوبات على صبره وشكْرِه ، بملابستّه له عند الله إلى تعظيم قدْره الواقف معه على نفعه وضرّه ، وأمّا الصّوفيّ فهو الفقير الذي أسقط الوقوف مع الأعواض ، وعمل على الصّدّ عن الموجودات المنقسمة إلى الجواهر والأعراض ، وقَطَعَ العلائق والعوائق ، وواصَلَ الفناء عن التّطلّع لغير الخالق ، وبايَنَ الأكوان والأزمان قَلْباً وقالباً ،

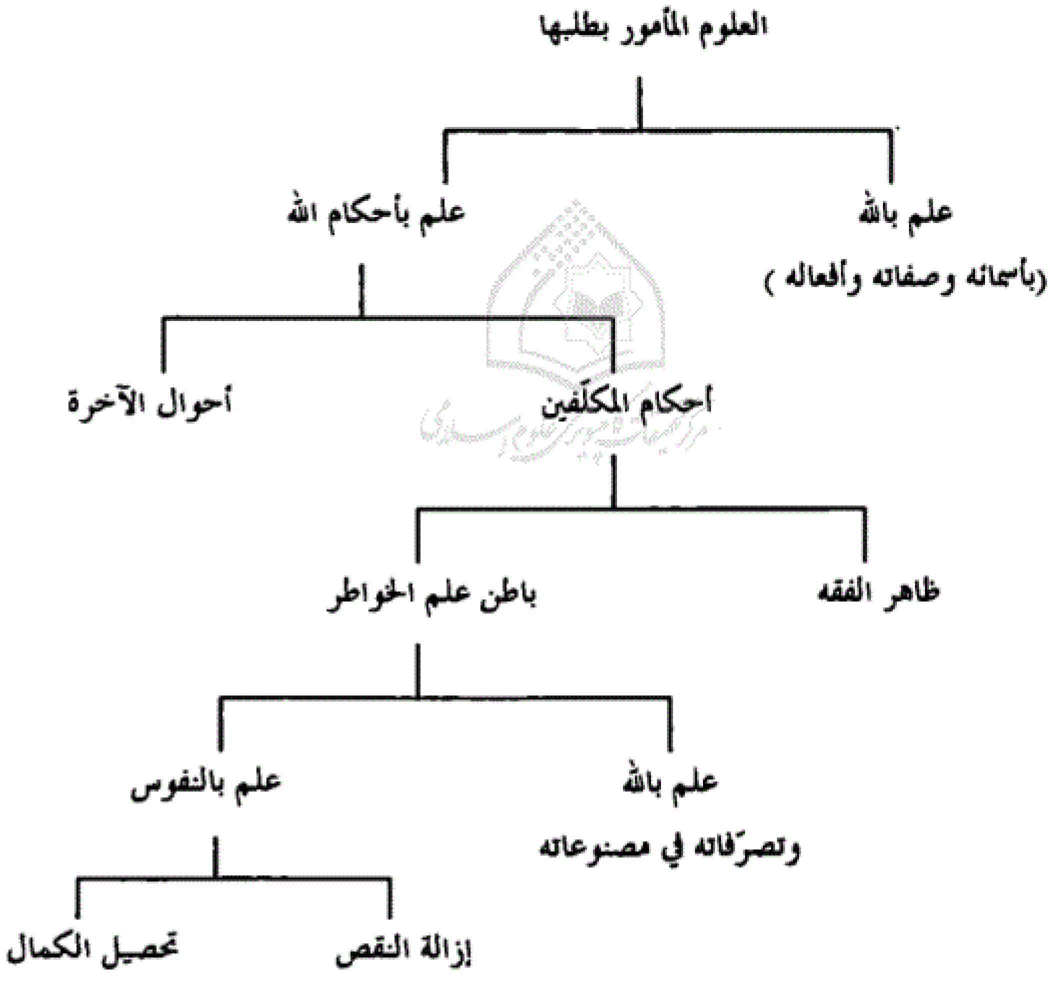
(١) شهاب الدين عمر بن محمد القرشي السّهرورديّ (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ) فقيه ، مفسّر ، واعظ ، وهو صاحب كتاب " عوارف المعارف " .

وبقـــي بالله ملاحظاً طالباً ، وترك نفسَه عن التَّطلّع لها جانباً ، وجعل مع الخَلْق جميل الخُلُق له صاحباً ، ولم يَتقيّد بمقام أو حال ، فيكون في صفقة بيعته خائباً .

فإذا عُلِمَ الفَرْقُ بين الفريقين تبيّن الحُكْمُ على الطريقين [١] .

---

(١) هذا مخطّط ما ذكره القسطلاني من أنواع العلوم النافعة أو المحمودة :



ثم إنـــه قد كثر التشبّه في وقتنا بالطائفتين ، وغرّ أرباب البصائر في التمييز بين الجهتين ، فقوم حكَوْا منهم الأفعال في الصُّوَر ، وباينوهم في المعاني والأثَر ، فتجرّدوا ظاهـــراً إيهاماً وتعلّقوا باطناً أحكاماً ، فسَعَوا في تحصيل لذّاهم وشهواهم وما تعبّدوا بأحكام لطريق في حركاهم وسكناهم ، وأفسدوا مَنْ تعلّق بهم لإنالتهم لطلباهم [١] .

وقوم نطقوا باللسان الخارج عن المصطلح ، وقرروا في الأذهان أنّ ذلك أكمل المعـــنى المقترح ، وصنفوا على مقاصدهم كتباً كثيرة خارجة عن طريق القوم ، داخلة فريقَ الذّمّ لمن تعاطاها واللوم ، مجانبة لعقائد الإيمان الصحيحة ، مقرّرة لقواعد البهتان الصـــريحة ، محـــرّرة لقواعد البرهان المنتجة ، قد بُنيت على قواعد تُلُقّيَت بالتّقليد ، فوقعتْ في النقص عن طلب المزيد ، وأوهموا أن ذلك عينُ المراد بين هذه الطّائفة ، وإنْ لم يفهمْ ذلك المصطلح فإن أذهانهم واثقة ، وعكفوا على علم الفلسفة تدويناً ، وسمّوه بالحقـــيقة بالتحقيق والإحاطة وهماً وتخميناً ، لا علماً ويقيناً وعدلوا عن التّصوّف وما حصل لهم شيء من التعرُّف [٢] .

إلى أنْ قـــال : ونهايـــة عـــلم التّصـــوّف هـــو اطّـــراح العـــادات ومخالفة الإرادات ، مســـلماً مـــع مَنْ لـــه الأمـــر ، وهو الفاني في رؤية الأشياء بالمنشِئ لها ، والفـــاني في فـــنائه ، عـــن رؤيـــة فـــنائه فيـــبقى بالله باقياً ، وهو المحبوب الملحوظ والمـــربوب المحفـــوظ ، كمـــا قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربّه : " ولا يزال

(١) يقصد بانتقاده من لم يتخلّصوا من أهوائهم ورغائبهم .

(٢) يعني بهذا المقطع أصحاب التصوف الفلسفي الذين خرجوا به من التصوف الشّرْعي .

عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه " الحديث [1] .

إلى أنْ قال : ومن طريق القوم أنّ لهم في كُلّ عمل نيّة ، لتكون قلوبهم حاضرة فيما يعانون من الأفعال والأقوال حتى يبقى ذلك عادةً لهم ، فتتمرّن النفسُ على ذلك ، فلا يطغى ولا يغفل ولا يسهو .

ثم قال : واعلم أنّ كل طائفة انتمتْ للاشتغال بعلم فلا بدّ لها من مصطلح في ذلك العلم حتى يتميّز به ويقع به التخاطب بينهم، كما وقع لأرباب الصنائع ، كالتجارة والحياكة وغير ذلك . فافتقرت هذه الطائفة إلى مصطلح يعبّر به عن معلومها في مقاصدها ، حتى يقع الفرْق بين من انتمى إليها ، وتخلّق بأخلاقها ، وتأدّب بطريقها ، ومارس علومها ، وبين مَنْ كان خالياً منها ، مُعرِضاً عنها ، آخذاً في غير منهجها ، أو معاشراً لها قد تزيّا بزيّها ولم تسْمُ همّتُه إلى طلب علمها وفهم مصطلحها ، فظنّ مَنْ رآه أنه من علمائها .

ومع ذلك فإنّ العبارة والإشارة لا تُفيد كما يُراد للنّفس الأمّارة ، وإنّما يفيدها ذلك ما تعامل به من الإهانة لها والحقارة . وقال بعض المتكلّمين لأبي العباس بن عطاء [2] : ما بالكم – أيّها الصوفيّة – اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السّامعين ،

---

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله قال : " مَنْ عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب . . . " البخاري : الرقاق ، باب التواضع ، رقم ٦١٣٧ .

(٢) أحمد بن محمد بن عطاء الأدميّ (بهمزة مفتوحة نسبة إلى بيع الأدم وهو الجِلْد) مات سنة ٣٠٩ هـ .

وخرجتم عن اللسان المعتاد ؟ فقال : ما قلنا ذلك إلّا لغيرتنا عليه ، لِعزّته علينا ، حتى لا يشير به غير طائفتنا .

فمــــن ألفاظهم التي اصطلحوا عليها : الوقت والمقام والحال والخاطر والوارد والشـــارد والسّرّ والنفس والغلبة والقبض والجمع والفرق والفناء والبقاء . . . . في ألفاظ أُخَرَ مبيّنة في الكتب الموضوعة في هذا الشأن .

هذا آخر ما لخّصته من كتاب القسم الثاني .

* * *

(٢٦)
فصـــل

قال الغزالي في الإحياء ، بيان الغرور وبيان أصناف المغترّين ، الصنف الثالث : المتصوّفة ، وما أغلبَ الغرورَ عليهم .

والمغترّون منهم فِرَق ، ففِرْقةٌ منهم متصوّفة أهل الزّمان ، إلّا مَنْ عصمه الله ، اغترّوا بالزّيّ والهيئة ، فشاركوا الصادقين من الصوّفيّة في زيّهم وهيئتهم ، وفي ألفاظهم وفي آدابهم وقراءهم واصطلاحاهم ، وفي أحوالهم الظّاهرة في السّماع والرّقص والطّهارة والصّلاة والجلوس على السّجّادات ، مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكّر ، وفي تنفّس الصُّعَدَاء [1] ، وفي خفض الصّوت في الحديث . . إلى غير ذلك من الشّمائل والهيئات ، فلمّا تكلّفوا هذه الأمور وتشبّهوا بهم فيها ظنّوا أنّهم صوفيّة ، ولم يُتعبوا أنفسهم قطّ في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفيّة والجليّة . كلّ ذلك من أوائل منازل التصوّف .

ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أنْ يعدّوا أنفسهم من الصوفيّة ، كيف ولم يحوموا حولها ، ولم يَسُوموا أنفسهم [2] شيئاً منها ، بل تكالبوا على الحرام والشُّبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون في الرغيف والفَلْس [3] والحَبّةِ ، ويتحاسدون على النّقير والقِطْمير [4] ، ويمزّق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرَضه . وهؤلاء غرورهم ظاهر .

---

(١) الصُّعَداء : المشقة . وتنفّس الصعداء : تنفّس نفساً ممدوداً أو مع توجّع .

(٢) لم يسوموا : لم يكلّفوا ، لم يلزموها به .

(٣) الفَلْس : القشرة على ظهر السمكة ، سمّي بها " القرش " وهو جزء من ألف من الدينار . وكان قديماً يقدّر بسدس الدرهم .

(٤) النقير : نكتة أو ثقب في غلاف البذرة ، يُضرب مثلاً للشيء القليل أو الضعيف والقِطمير : القشرة الرقيقة على النّواة .

وفـرقة أخـرى زادتْ على هؤلاء في الغرور ، إذ شَقَّ عليهم الاقتداء بهم في بـذاذة [1] الثياب والرضى بالدُّون [2] ، وأرادتْ أنْ تتظاهر بالتَّصوّف ، ولم يجدوا بُدّاً مـن التَّزيِّي بزيّهم ، فتركوا الحرير والإبْرَيْسَم [3] ، وطلبوا المرقّعات النفيسة والفوط الرفـيعة [4] ، والسجادات المصبوغة ، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والأبرَيْسُـمِ ، وظـن أحدهم مع ذلك أنّه متصوّف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقّعاً ، ونَسِـيَ أنّهـم لوّثوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كلَّ ساعة لإزالة الوسخ . وإنّما لبسوا [5] المرقّعات إذْ كانتْ ثيابُهم مخرّقة ، فكانوا يرقّعونها ولا يلبسون الجديد . وأما تقطيع الفوط الرفيعة قطعةً قطعة وخياطة المرقّعات منها ، فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقةً من كافة المغرورين ، فإنّهم يتنعّمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ، ويطلبون رغد العيش ، ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظّاهرة فضلاً عن الباطنة . وهم مع ذلك يظنّون بأنفسهم الخير . وشرّ هؤلاء ممّا يتعدّى إلى الخَلْق ، إذْ يهلك مَنْ يقتدي بهم ، ومَنْ لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوّف كافّة ، إذْ يظـنّ أنّ جميعهم كانوا من جنس هؤلاء ، فيطول اللسان في الصّادقين منهم ، و كلُّ ذلك من شؤم المتشبّهين وشرّهم .

وفـرقة أخرى ادّعت علم المعرفة ومشاهدة الحقّ ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفـاظ ، لأنّه تلقّف من ألفاظهم كلمات ، فهو يردّدها ، ويظن أنّ ذلك من أعلى عـلم الأوّلين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين وأصناف العلماء

---

(١) بذاذة : رثاثة .

(٢) الدون : القليل الحقير .

(٣) الإبريسم (بفتح الرّاء والسين وبكسر الهمزة أو فتحها) : الحرير . وقد تضمّ سينها .

(٤) الفُوْطة : ثوب قصير غليظ كان يتّخذ مئزراً . وإزار يلبس فوق الثياب .

(٥) الواو تعود إلى الصوفيّة الشرعية .

بعين الازدراء ، فضلاً عن العوّام ، حتّى إنّ الفلّاح يترك فلاحته ، والحائك يترك حياكته ويلازمهم أيّاماً معدودة ، ويتلقّف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فهو يردّدها كأنّه يتكلّم عن الوَحْي ، ويخبر عن سرّ من الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد إنّهم أجراء مُتْعَبُون ، ويقول في العلماء : إنّهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدّعي لنفسه أنّه الواصل إلى الحقّ ، وأنّه من المقرَّبين ، وهو عند الله من الفُجّار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يُحْكِم قطّ علماً ، ولم يُهَذِّبْ خلُقاً ، ولم يرتّبْ عملاً ، ولم يراقبْ قلباً ، سوى اتّباع الهوى وتلقّف الهذيان وحفظه .

وفرقة منهم وقعتْ في الإباحة فطوَوا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسوَّوا بين الحلال والحرام ، فبعضهم يزعُم أنّ الله مُسْتغنٍ عن عملي ، فلمَ أتْعَبُ ؟ وبعضهم يقول : قد كلّف النّاس تطهير القلوب عن الشّهوات وعن حبّ الدُّنيا ، وذلك مُحال ، فقد كلّفوا ما لا يُمكن ، وإنّما يغترّ به مَنْ لم يجرّبْ ، وأمّا نحن فقد جرَّبنا وأدركْنا أنّ ذلك محال .

ولا يعلم الأحمق أنّ النّاس لم يكلّفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنّما كُلّفوا قلع مادّتهما بحيث ينقاد كلّ واحد منهما لحكم العقل والشرع .

وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا قدْرَ لها ، وإنّما النَّظرُ إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحبّ الله ، وواصلة إلى المعرفة ، وإنّما نخوض في الدّنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفةٌ في حضرة الربوبيّة ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنّهم قد ترقّوا عن رُتْبة العوامّ ، واستغنَوْا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، فإنّ الشهوات لا تصدّهم عن طريق الله لقوّتهم فيها . ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء ، إذْ كانوا يبكون على أدنى شيء ، وينوحون عليه سنين متوالية .

وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبّهين بالصوفيّة لا تُحْصَى . وكلٌّ ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشّيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم ،

ومِـــنْ غيرِ اقتداءٍ بشيخٍ مُتْقِنٍ فِي الدّين والعلم ، صالحٍ للاقتداء به ، وإحصاءُ أصنافهم يطول .

وفرقة أخرى جاوزتْ حدّ هؤلاء وأحسنت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقّد القلب ، وصار أحدهم يدّعي المقامات من الزهد والتوكّل والرضى والحب ، من غـــير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها . فمنهم مَنْ يدّعي الوَجْدَ والحبّ لله ويزعم أنّه واله [1] بالله ، ولعلّه قد تخيّل في الله خيالات هي بدعة أو كفر ، فيدّعي حبّ الله قبل معرفته ، ثمّ إنّه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله ، وعن إيثار هـــوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخَلْق ، ولو خلا ما تركه حياءً من الله .

وفـــرقة أخـــرى ضـــيّقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص ، وأهملوا تفقّد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة .

ومـــنهم مـــن أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه ، وأخذ يتعمّق في غير ذلـــك . وليس يدري المسكين أنّ الله ليس يرضى من عبده بطلب الحلال فقط ، ولا يرضـــى بســـائر الأعمـــال دون طلب الحلال بل لا يُرْضيه إلاّ تفقّد جميع الطّاعات والمعاصي ، فمن ظنّ أنّ بعض هذه الأمور تكفيه وتُنجيه فهو مغرور .

وهذا كلّه كلام الغزالي بلفظه .

* * *

وأقـــول : إذا اعتـــبرت من يدّعي التّصَوّف من أهل العصر لم تجده يخرج عن بعـــض هـــذه الفـــرق إلا أفراداً معدودة ، فإنك ترى الواحد منهم يدّعي أنّه بلغ في التّصـــوّف الغايـــة ، فإذا جالسْته وحدّثته أوّل ما يشكو لك ضيق رزقه . فهذا أوّل

---

(١) وله (بفتح اللام وبكسرها): تحيّر من شدّة الوجد (الحزن) والخوف .

سخطه على الله ، وأوّل جهله بالله . أمّا السخط فلأنّه لو رضي بما رزقه الله وقسمه له لم يشْكُ ، إذ الراضي لا يشكو . وأمّا الجهل فإنّه شكا إلى عاجز ليس بيده إزالة الشكوى ، فلو عرف الله لعلم أنّ الأمور كلّها بيده ، ليس بيد غيره شيء منها . وربّما توسّم في الّذي يشكو له أنّه من جهة الملك أو بعض الأمراء فتخيّل له نفسُه أنّ الشكوى له تفيد أنّه يرفع حاله إلى ذلك الكبير ليمدّه بشيء ، وهذا أشدّ جهلاً ، حيث فاوت بين الخَلْق . فلو عرف الله لعلم أنّ الخلْق كلّهم سواء في عدم القُدْرة ، وإنّما الله هو المُجْري للأرزاق على يد مَنْ يشاء كيف يشاء .

فإنْ قال بجهله : فأين الأسباب ؟ وقد حضّ الشرع على الأسباب . قلنا : مَنْ يدّعي التجريد لا يذكر الأسباب ، فإن الله أقام الخلْق قسمين . قسم في الأسباب ، وقسم في التجْريد . فمن ادّعى أنّه في التجريد ثم أخذ يذكر الأسباب فهو مدّع كذّاب . ثم الأسباب لم تنحصرْ في سؤال الملوك ولا غيرهم ، فهلاّ ذهب ـ إنْ كان صادقاً في دعواه التصوّف ـ فأخذ حبلاً واحتطب ، وحمل على رأسه وباع واقتات منه ، كما أمر بذلك الحديث [1] . ما منعه من ذلك إلا التّكبر وعلوّ النّفس ، ومَبْنى التصوّف على كسرها والله المستعان .

ومنهم مَنْ تراه يتتبّع عيوب الخلْق فيذكرها ، كأنّه فرَغ من عيوب نفسه ، وهذا إنّما يصلح لمن أُذِنَ له في الكلام فيذكرها على جهة الإبهام ، من غير تعيين أحد ، كما يذكر الطبيب المرض وتشخيصه ، ثم يذكر علاجه ودواءه ، وإنما يحتاج إلى ذكرها في رجل معيّن إذا كان على وجه النُّصح والتحذير من القرب منه ، لمحْضِ حقّ الله تعالى لا لحظّ نفسه .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده ، لأنْ يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أنْ يأتيَ رجلاً فيسأله ، أعْطاه أو منَعه " [البخاري ، الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة ، رقم ١٤٠١ . وانظر أيضاً الأحاديث ١٤٠٢ و ١٤١٠ و ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ٢٢٤٥] .

ومـــنهم – وهـــو أعجبهم عندي حالاً – مَنْ ظنّ أنّ التّصوّف قراءة الكتب المؤلّفـــة فيه ، والبحث فيها وهذا غلط كبير . إنّما التّصوّف السعي في إصلاح القلب وتطهيره من الأمراض الخبيثة ، وتهذيب النفس وتفقّد عيوبها ، وما رأيت أحداً قطّ يأتي فـــيذكر شـــيئاً من أمراض قلبه ويسأل عن دوائه ، ولا يقول أحد : عندي تثاقل عن العـــبادة ، فكـــيف الطّريق إلى حصول النشاط ؟ ولا أجد عندي ميلاً إلاّ إلى الدنيا ، فكيف العلاج في إخراجه عن القلب ؟ ولا أجد في نفسي إلاّ علوّاً وحسداً وحرْصاً ، أو حقداً أو رياء وعُجْباً ، أو في لساني بذاءة ، أو انطلاقاً أو نحو ذلك ، فكيف السَّبيلُ إلى إزالـــته ؟ أو كـــان لي وِرْدٌ فكّلتْ نفسي وانقطعتْ عنه ، فكيف أعود إليه ؟ أو عـــوّدني الله بالتحفّظ ثم بدَتْ منّي زلّة فكيف الرجوع ؟ لا ترى أحداً يسأل عن شيء من ذلك . وهذا مبدأ التّصوّف ، وهو الذي يُهْتَمّ به أولاً ، فما ترى الواحد منهم ـــ أوّلَ مـــا يجالســـك ـــ إلاّ يتكلّم في الروح وإشراق القلب وإفاضة الأنوار والمطالعة بالأسرار ، والخوض فيما لا يعنيه ولا طُلب منه ، ولا كُلفَ به ولا أُهّلَ له ، وهو عنه بمـــنقطع الـــثرى ، ولم يكـــنْ يـــتكلّم فيه إلاّ أولئك الكبار الذين وصلوا إلى درجة الصّدّيقيّة ، فيتكلمون فيه مع أمثالهم بما هو عندهم معلوم واضحٌ لا إشكال فيه ، فما مثل الواحد ممّن ذكرْتُ إلا مثل المملوك الجِلْف الذي سلّمه السُّلْطان إلى المعلّم ليعلّمه الـــرّمْحَ والـــرمي بالنشّاب ، فترك ما طُلب منه وأخذ يسأل المعلم عن أحوالِ المملكة وكـــيف يُديرها ؟ سؤالَ مَنْ هو سلطان ، وأخذ يستشير : ماذا يفعل ، ماذا يولّي من الـــنّوّاب وأربـــاب الوظائف ؟ وليس لمثل هؤلاء جواب إلاّ التّرْك والإعراض وعدم التّشـــاغل بجوابهـــم . نعمْ إنْ تلمحْ من أحد منهم أنّه يقبل النّصيحة ، وتنجع [1] فيه الموعظة فانْهَهُ عن الخوض في ذلك ، وبين له أنّ المهمّ والمطلوب منه خلاف ذلك .

---

(١) تنجع : تنفع .

قال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم : النّاسُ صنفان ،فصنف منهم يعـــبدون الله على البرّ والتقوى ، فهم محتاجون إلى خيْر الزّمان وإقباله ودولة الحقّ ، وصـــنف منهم أهل اليقين ، يعبدون الله، على وفاء التّوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأســـباب ، فهم غير ملتفتين إلى إقبال الزمان وإدباره ، ولا يضرّهم إدباره ، هو قول الـــنبي صـــل الله عليه وسلم : "إنّ الله عباداً يغذوهم برحمته يُميتهم في عافية ، تمرّبهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرّهم " [١] وقوله صلى الله عليه وسلم : " يكون في أمّتي فـــتن لايـــنجو منها إلاّ مَنْ أحياه الله بالعلم " [٢] قال الترمذي : يعني العلم بالله فيما نرى .

وقـــال أيضـــاً : من ادّعى الولاية فيقال له : صفْ لنا منازل الأولياء . فذكر مسائل معياراً على من ادّعى الولاية .

وقـــال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : للقطب خمس عشرة كرامة ، فمن ادّعى هـــذه الرّتبة فليختبرْ بها . ثمّ عدّدها . وقال الشيخ تاج الدين في لطائف المنن [٣] اعلمْ أنّ رفع الهمّة عن الخلْق شأن أهل الطريق ، وصفة التّحقيق ، ولقد سئلَ الجنيد : أيزني العارف ؟ فقال : (وكان أمْرُ الله قدراً مقدوراً) .

ولعمري لو سئل : أيطمع العارف في غير الله ؟ قال : لا ، وإنّما مراد الحق سبحانه أن يُفـــرده العـــباد في كلّ شيء حباً وثقةً وتوكّلاً وخوفاً ورجاء . وذلك الذي تستحقّه فرديّته .

---

(١) ضـــعيف . وهـــو في لسان الميزان ٦ / ٣٠ برقم ١١١ ، ونوادر الأصول ، وحلية الأولياء ، والطبراني كلهم عن ابن عمر رضي الله عنهما [كنـــز ٤٢ ١١]

(٢) ضعيف . رواه ابن ماجه في الفتن ، باب ما يكون من الفتن ، رقم ٣٩٥٤ وأبو سعيد الدارمي في سننه ١ / ٩٧ والطبراني [كنـــز العمال ٣٠٨٨٣] .

(٣) لطـــائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن (الشّاذلي) ، لتاج الدين أحمد بن محمّد بن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩ هـــ وهو صاحب الحكم العطائية .

ورفعُ الهِمّة إنّما ينشأ عن صدق الثقة بالله على سبيل المعاينة فيوجبُ لهم إيمانهم الاعـــتزازَ بالله ، قال الله تعالى : (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين)[1] والنصرَ من عند الله ، قال الله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)[2] والنجاةَ من العوارض الصّادّة عن الله تعالى ، قال تعالى : (كذلك حقاً علينا نُنج المؤمنين)[3]

وشــعارُ أهل الإرادة ودِثارُهم [4] الاكتفاءُ الله ، ورفعُ الهمّة عما سوى الله ، وصيانة ملابس الإيمان من أنْ تدنّس بالميل إلى الأكوان ، والطمع في غير الملك الدّيّان .

والـــذي يوجبُ لكَ رفع الهمّة عما سوى الله علمُكَ بأنّه لم يخرجك إلى مملكته إلاّ وقد كفاك ومنحك وأعطاك ، فلم يبق لك حاجة عند غيره .

وإذا كان قد اقتضى لهم الفَهْمُ عن الله أنْ يكتفوا بعلمه عن مسألته ، فكيف لا يُوجب لهم الفهمُ الاكتفاء بعلمه عن سؤال خليفته ، ومَنْ فاتحه الحقُّ سبحانه بشيء مما فـــاتَح بـــه أحبّاءه فقد اقتضى منه رفع همّته إليه ، كما اقتضاه من غيره ، وأوْلى ، ألم تسمعْ قـــوله سبحانه : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تَمُدَّنَّ عينيك إلى مـــا متّعنا به أزواجاً منهم)[5] . وكيف لا تكون منّته فيك ومواهبُه وفواتح عنايته وخصـــائص ولايـــته ناهيةً لك عن التّعَلّق بغيره ؟ وإذا كان ذا رتبة من المخلوقين فلا يرضى منك أنْ تنسب رتبة المنع والعطاء والولاية والعزْل منها لغيره ، فاحذرْ أنْ تكون من الذين قال الله فيهم : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون)[6] .

---

(١) المنافقون ٨ .

(٢) الروم ٤٧

(٣) يونس ١٠٣ .

(٤) الشّـعار : مـا ولي جسد الإنسان من الثياب . والدثار : الثوب الذي يكون فوق الشّعار . وكلاهما على وزن (فِعال) بكسر الفاء .

(٥) الحجر ٨٧ و٨٨ .

(٦) يوسف ١٠٦ .

وقبيحٌ أنْ تكون في دار ضيافته وتوجّه وجه طمعك لغيره ، وتطلب ممّنْ هو بعيد عنك ، وتترك الطّلب من مولىً هو أقرب إليك من حبل الوريد ، ألم تسمع إلى قوله : (فإنِي قريب أجيبُ دعوةَ الداع إذا دعان)[1] وقوله : (واسألوا الله من فضله)[2] وقوله : (ادعوني أستجبْ لكم)[3] وقوله : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه)[4] . كلُّ ذلك لجمع عباده عليه ، وكيلا ترجع حوائجهم إلاّ إليه . انتهى .

وقال أيضاً : اعلمْ أنّ مَبْنَى أمر الوليّ الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاغتناء بشهوده ، وقال تعالى : (ومَنْ يتوكّل على الله فهو حسبه)[5] وقال تعالى : (أليس الله بكافٍ عبدَه)[6] وقال تعالى : (ألمْ يعلم بأنّ الله يرى)[7] وقال تعالى : (أو لم يكْفِ بربّك أنّه على كل شيء شهيد ؟)[8] .

فمبنَى[9] أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق ، والانفراد بالمَلِك الحقّ ، وإخفاء الأعمال ، وكتم الأحوال ، تخفيفاً لعنائهم ، وتثبيتاً لزهدهم ، وعملاً على سلامة قلوبهم ، وحبّاً في إخلاص أعمالهم لسيّدهم .

حتى إذا تمكّن اليقين ، وأُيّدوا بالرُّسُوخ والتّمكين ، وتحقّقوا بحقيقة الفناء ، ورُدّوا إلى وجود البقاء ، فهنالك إنْ شاء الحقّ أظهرهم هادِين لعباده ، وإنْ شاء سترهم ، فاقتطعهمْ عن كل شيء إليه .

---

(١) سورة البقرة ١٨٦ .

(٢) النساء ٣٢ .

(٣) غافر ٦٠ .

(٤) الحِجْر ٢١ .

(٥) الطلاق ٣ .

(٦) الزّمر ٣٦ .

(٧) العلق ١٤ .

(٨) فصّلت ٥٣ .

(٩) مصدر ميمي من بنى بمعنى بناء .

وظهور الوليّ ليس بإرادته لنفسه ، ولكنْ بإرادة الله له ، بل مطلبُه – إنْ كان له مطلب – الخفاءُ لا الجلاء ، فلمّا لم يكن الظهور مطلبهم ، وأراد سبحانه إظهارهم فأظهـــرهم تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله صلى الله عليه وسلم : " يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الإمارة ، فإنّك إن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها ، وإنْ أعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها " [١] .

ومن تحقّق منهم بالعبوديّة لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاءً ، بل إرادته على اختيار سيّده له .

قال : ومن أجلّ مواهب الله لأوليائه وجود العبارة .

قـــال : وسمعـــت شيخنا أبا العباس [٢] يقول : يكون الوليّ مشحوناً بالعلوم والمعارف ، والحقائق لديه مشهودة ، حتّى إذا أُعطيَ العبارة كان كالإذن من الله له في الكلام . قال : ومَنْ أُذِنَ له في التعبير هُيّأت في مسامع الخلْق عبارته ، وجُليتْ لديهم إشارته .

قـــال : وسمعت شيخنا أبا العباس يقول : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطـــلاوة ، وكـــلام الذي لم يُؤذنْ له مكسوف الأنوار . حتى إنّ الرجلين ليتكلّمان بالحقيقة الواحدة فيُقْبَلُ من أحدهما ويُرَدّ على الآخر .

قـــال : واعـــلمْ أنّ مَنْ أراد الله به أنْ يكون داعياً إليه من أوليائه فلا بدّ من إظهـــاره إلى العباد ، إذْ لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك ، ثمّ لا بدّ أنْ يكسوَه الحقّ كِسْوتين [٣] : الجلالة والبهاء .

---

(١) البخاري : الإيمان والنذور ٦٢٤٨ وباب الكفّارة قبل الحِنْث ٦٣٤٣ والأحكام ، باب من لم يســأل الإمـــارة ٦٧٢٧ ومـــا بعـــده . ومسلم ، الإيمان ، باب مَنْ حلف يميناً فرأى غيرها خيراً ١٦٥٢ .

(٢) أبو العباس المرسي شيخ ابن عطاء السكندري ، توفي سنة ٦٨٦ هـــ .

(٣) كسوة : فيها لغتان : بضم الكاف وكسرها .

أمّـا الجلالة فلتعظّمه العباد ، فيقفوا على حدوده ، ويضع له في قلوب العباد هيـبة ، وينصره بها ، ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه . وجعل هذه الهيبة في قلوب العباد من تمكين الحقّ له ليعينه على القيام له بالنصرة ، قال تعالى : (الذين إنْ مكّـنّاهم في الأرض أقـاموا الصّـلاة وآتـوا الـزكاة وأمروا بالمعروف ونُهوا عن المـنكر) (١) . وهـي من إظهار إعزاز الحقّ لعباده المؤمنين ، قال تعالى : (ولله العِزّةُ ولرسوله وللمؤمنين) (٢) وهذه الهيبة التي جعلها الحقّ في قلوب العباد لأوليائه سرتْ إلـيهم لانبسـاط جـاه المتبوع عليهم ، ألم تَسْمَعْ إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " ونُصِـرْتُ بالرُّعْـب مَسِيرةَ شهر " (٣) ؟ ألبسهم الحقُّ ملابس هيبته ، وأظهر عليهم إجـلال عظمته ، وكلّما نزلوا إلى العبوديّة ، رفعهم إلى سماء الخصوصيّة ، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود ، والأعزّاء وإنْ لم تَسرْ أمامهم الجنود .

* * *

(١) الحج ٤١ .

(٢) المنافقون ٨ .

(٣) البخاري : التيمّم ٣٢٨ والمساجد ، باب قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " رقم ٤٢٧ ومسلم : المساجد ٥٢١ .

(٢٧)

فصـــل

في العقيدة التي أجمع عليها الصُّوفيّة .

قـال صاحب التّعرّف : أجمعت الصوفيّة على أنّ الله تعالى واحد أحد ، فردٌ صـمد [١] ، قديم عالم قادر حقّ سميع بصير باقٍ عزيز عظيم جليل كبير جواد رؤوف متكـبّر جبّار أوّل ، إله سيّد مالك ربّ رحمن رحيم ، مُريدٌ حكيم متكلّم خالق رازق موصوف بكلّ ما وصف به نفسه ، مسمّى بكل ما سمّى به نفسه ، لم يزلْ قديماً بأسمائه وصـفاته ، غـير مشبّه بالخلق بوجه من الوجوه ، لا تشبه ذاته الذوات ، ولا صفته الصّفات ، ولا يجري عليه شيء من سِمات المخلوقين ، لم يزل سابقاً متقدّماً المحدثات ، موجـوداً قبل كلّ شيء ، لا قديم غيره ، ليس بجسم ولا شَبَحٍ ولا شخص ولا صورة ولا جوهر ولا عرض . لا اجتماع له ولا افتراق ، ولا يتحرّك ولا يسكن ، ولا يزداد ولا يـنقص . لـيس بـذي أبعاض ولا أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، ولا بذي جهات ، لا تجري عليه الآفات ، ولا تأخذه السِّنات [٢] ولا تداوله الأوقات ولا يعيّنه الإشارات . لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان . لا تجوز عليه المماسّة ولا العُزْلة ولا الحلول . لا تحيط به الأفكار ولا تحجبُه الأستار ، ولا تدركه الأبصار . لم يسبقه قَبْل ، ولم يقطعه بَعْد ، ولا يغادره " من " ، ولا يوافقه " عن " ولا يلاصقه " إلى " ولا يحلّه " في" [٣] ، ولا يوافقـه " إذْ " ولا تؤامره " إنْ " ولا يظلّه فوق ، ولا يُقلّه تحت ، ولا يُقابلـه حَدّ ، ولا يزاحمُه " عند " ، ولا يأخذه " خَلْف " ، ولا يحدّه أمام ، ولا يظهره

---

(١) صمد : مقصود بالحوائج .

(٢) السِّنَةُ : غلبة النّعاس .

(٣) " من " للتبعيض . و" عن " للمجاوزة ، و" إلى " لانتهاء الغاية ، و " في " للظرفيّة . . . ربّنا عزّ وجلّ منـزّه عن التبعيض ، ولا يَعْزُب عنه شيء ، ولا يحدّه مكان ولا زمان . . وكلّ ما خطر في بالك فهو بخلاف ذلك .

قَبْل ، ولا يَفنيه بعد ، ولا يجمعه كلّ ، ولا يوجده كان ، ولا يُفقده ليس ، ولا يستُره خفاء .

تقـــدَّم الحدوثَ قدَمُه ، والقِدَمَ وجوده ، والغاية أزلُه . إنْ قلْتَ " متى " فقد سبق الوقت كونه ، وإنْ قلتَ " قبل " فالقبل بعده ، وإن قلت " هو " فالهاء والواو خَلْقُـــه ، وإنْ قلـــت " كـــيف " فقد احتجبت عن الوصف ذاته ، لا يجتمع صفتان متضادّتان لغيره [1] امتناعاً بذلك أنْ يشبهوه .

فعلُـــه من غير مباشرة ، وتفهيمُه من غير ملاقاة ، وهدايته من غير إيماء . لا تـــنازعه الهمم ، ولا تخالطه الأفكار . ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف . أجمعوا على أنّه لا تدركه ، ولا تهجم عليه الظنون . ولا تتغيّر صفاته ، ولا تتبدّل أسماؤه ، لم يـــزل كذلـــك ، ولا يـــزال . (هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم) [2] (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [3].

* * *

---

(١) مثل الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن .

(٢) الحديد : ٣

(٣) الشورى : ١١

(٢٨)

فصـــل

اخـــتلف في صفات الأفعال ، فالأشعريّة على أنّها حادثة . والحنفيّة على أنّها قديمة ، وإليه ذهب كثير من الصوفيّة ، فقالوا : لم يزلْ خالقاً . واحتجوا أنّها لو كانت حادثة لكان ناقصاً في الأزل ، ثمّ كمل فيما لم يزلْ .

قـــال القونـــوي [1] في شرح " التعرّف " : يُقال لهم : يلزمكم على هذا قدم الخلْق ، لأنّ قولكم : " لم يزل خالقاً " يوجب كونَ الخلق معه في القِدَم . قال : وهذه شبهة الفلاسفة في قِدَم العالم .

وقـــد حكـــى عـــن بعضهم أنّه صعد المنبر وقال للحاضرين : ما تقولون في رجلـــين ، اعتقادُ أحدهما أنّ الله لم يزلْ مالكاً للمُلْك ، خالقاً رازقاً للرّزق غنياً جواداً مفيضـــاً للخيرات ، له الخلْق والأمر أزلاً وأبداً . والآخر يعتقدُ أن الله كان في الأزل وحده ، لم يكن معه شيء ، ولا كان له خلْق ولا أمر حقيقة ، ثمّ تجدّد له ذلك . أيُّهما أحقّ بالاتباع .

فـــبادر الـــناس إلى أنّ القائل الأوّل أحقّ بالتصديق والاتباع . وهذه دسيسة فلســـفية فليُتَنبّه لها ليحترز عنها ، ويقال لهم : لا نقص مع تحقّق القدرة الكاملة أزلاً وأبـــداً ، وإنّمـــا اقتضت الحكمة الإلهيّة تأخُّر الخَلْق إلى إرادة الله تعلّقَ القدرةِ الأزليّة بإيجـــاده ، وإذا اســـتحال كونُ الحادث أزلياً لم يكن عدم تعلُّقِ القدرة بإيجاده أزلاً ، لنقص في القدرة ، بل لعدم قابليّة المستحيل لتأثير القدرة فيه بالإيجاد .

قال : والحاصل أنّ الأشاعرة قالوا : الخالق حقيقةً هو الذي صدر منه الخَلْق ، فلـــو كان قديماً لزم قدم الخَلْق . نعمْ ، إنْ أُريد بالخالق : القادر على الخلْق لم يكن في قدمه خلاف .

---

(١) عـــلي بن اسماعيل القونوي ، أبو الحسن ، علاء الدين (٦٦٨ – ٧٢٩ هـــ) : فقيه شافعي متصوّف ، وليَ قضاء بلاد الشام . من أعماله : شرح كتاب التعرُّف للكلاباذي .

(٢٩)

فصـــــل

في التعرّف :

وأجمعـــوا عـــلى أنه تعالى لا يُرَى في الدُّنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلّا من جهة الإيقـــان [١] ، أي الإيقان بوجوده تعالى ، لأنه غاية الكرامة وأفضل النّعَم ، ولا يجوز ذلك إلّا في أفضل مكان [٢] ، ولو أُعْطوا في الدّنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجـــنّة الباقية فرْق . ولمّا منع الله كليمه موسى عليه السّلام ذلك في الدنيا كان مَنْ دونه أحرى .

قـــال : ولا نعـــلم أحداً من مشايخ هذه الطّريق ، ولم نرَ في كتبهم ، ولا في مصنّفاتهم ولا في رسائلهم ولا في الحكايات الصحيحة عنهم ولا سمعْنا ممّنْ أدركنا منهم زعـــم أنّ الله يُـــرى في الدنـــيا ، أو رآه أحد من الخَلْق [٣] ، إلا طائفة غلاة لم يعرفوا بأعـــيانهم ، بـــل زعم بعض النّاس أنّ قوماً من الصوفيّة ادَّعوها لأنفسهم . وقد أطبق المشـــايخ كلّهـــمْ على تضليل من قال ذلك ، وتكذيب من ادَّعاه ، وصنّفوا في ذلك كتـــباً ، منهم أبو سعيد الخرّاز والجنيد : في تكذيب من ادّعاه وتضليله ، وقالوا : من ادّعى ذلك لم يعرف الله تعالى وهذه كتبهم تشهد على ذلك .

زاد القونـــوي : وقـــد يكون الشيطان تراءى لمن ادّعى ذلك ، ودعاه لنفسه وربطه في الضّلال .

* * *

---

(١) مصدر أيقن .

(٢) وهو الجنة .

(٣) قال الشيخ بكري رجب :"الجائز عقلاً عليه تعالى أن يُنْظَرَ بالأبصار ، إلاّ أنه لم يثبتْ إلا لنبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم في الدّنيا "{ هداية المريد إلى جوهرة التوحيد(دار الخير)٦٨ }

(٣٠)

فصـــل :

وقال في التعرّف في نعوت الصوفيّة :

ورأوا طلـــب العلم أفضل الأعمال ، وهو علم الوقت بما يجب عليهم ظاهراً وباطـــناً ، وهـــم أشفقُ النّاس على خلْق الله من فصيح وأعجم ، وأبذل النّاس لما في أيديهم ، وأزهدهم فيما في أيدي الناس ، وأشدّهم إعراضاً عن الدّنيا ، وأكثرهم طلباً للسّنّة والآثار ، وأحرصهم على اتّباعها .

قال القونوي : لأنَ الخير كلّه في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : (قُلْ إنْ كنتم تحبّون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله) (١) قال بعضهم : اعتبار الاتّباع في المحبّة مما يُبطل قول مَنْ زَعَمَ من الزّنادقة أنّ العبد قد ينتهي إلى مقام يستغني فيه عن الواســطة بينه وبين الله ، لأنّ أقصى مقامات العارفين المحبّة ، وهي مشروطة بالاتّباع ، فما ظنُّك بغيرها ؟

ثم قـــال : ومَنْ كان منهم أصْفى مراداً وأعلى مرتبةً وأشرف مقاماً فإنّه أشدّ اجـــتهاداً وأخلـــص عملاً وأكثر خوفاً ، ويأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلفَ فيه الفقهاءُ . وهم مع إجماع الفريقيْنِ فيما أمكن (٢) ، ويَروْن اختلاف الفقهاء صواباً ، ولا يعترض واحد منهم على الآخر ، فكلُّ مجتهد عندهم مصيب .

---

(١) آل عمران : ٣١٠

(٢) عندما يحظى حُكم فقهي بإجماع المذاهب يبلغ النهاية في القوّة .

واجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرْث وغير ذلك ، على تيقّظ وتثبّت وتحرُّز من الشُبُهات . وإنما تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونيّة العود على الأغيار ، والعطف على الجار ، وعندهم واجبة [1] لِمَنْ له عيال ، مباحة للمنفرد .

واشتغاله بوظائف الحقّ أوْلَى وأحَقّ .

* * *

---

(١) المكاسب واجبة . . .

(٣١)

فصـــــل

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن :

طـريقةَ الشيـخ أبي الحسـن الشـاذلي تنسـب إلى الشيخ عبد السلام بن مشـيش [١] ، والشيخ عبد السلام يُنسبُ إلى الشيخ عبد الرحمن المدني ، ثمّ واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، وهو أوّل الأقطاب .

قـال: وإنّما يَلْزم تعيينُ المشايخ الذين يستند إليهم طريق الانتساب مَنْ كانتْ طريقُه بلُبْس الخِرْقة ، فإنّها رواية ، والرواية يتعيّن سندها . وهذه هداية .

وقـد يجذب الله العبدَ إليه فلا يجعل عليه منّةً لأستاذ ، وقد يجمع شمله برسول الله صلى الله عليه وسلم . وذُكر عن الشيخ عبد الرحيم القنائي أنّه كان يقول : أنا لا مـنّة لأحد عليَّ إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا أراد الله أنْ يتفضل على عبد فيكونُ أخذه عنه [٢] ، وكفى بهذا منّة .

ولقـد قال لي الشيخ مكين الدّين الأسمر : أنا ما ربّاني إلّا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويُغنيه عن الأستاذين [٣] ، حتى لا يكون له فيهم سَلَفٌ فعْل .

ثم قال الشيخ تاج الدّين : وسمعت الشيخ أبا العباس [٤] يقول ، والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قطّ ، إلّا واحد عن واحد إلى الحسن .

قال : وسئل الشيخ أبو العباس عن رجل كان كبيرَ الشهرة ، ولا يحضر صلاة الجمعة ، فتغيَّر ، وقال : تذكرون بين يديْ الأبدال والأولياء أهل البدع . انتهى .

---

(١) أبـو محمد ، من أهل جبل العلم بتطوان ، استشهد سنة ٦٢٢ هـ ، وهو صاحب " الصلاة المشيشية " : رسالة .

(٢) تعود الهاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) جمع الأستاذ ، مثل الأساتذة .

(٤) أبـو العـباس المُرسـي : أحمـد بـن عمر (. . . – ٦٨٦ هـ) . فقيه متصوّف من أهل الإسكندريّة ، وهو شيخ ابن عطاء الله .

(٣٢)

فصـــــل

فإن قلتَ : كيف يكون الحسن أوّل الأقطاب ، وقبله أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ؟

قلـــت : ظهر لي أنْ يقال : معناه أنّ الحسن أوّل مَنْ كانت له الخلافة الباطنة منفردة عن الظّاهرة ، فإن القطب هو خليفة النبي صلى الله عليه وسلم ووارث الأمر مِنْ بعده ، وكأنّ الحسن رضي الله عنه لَمّا ترك الخلافة الظاهرةَ ابتغاءَ وجهِ الله ، وحقَن دماء المسلمين (١) ، عوّضه الله ما هو أجَلّ منها ، وهو الخلافة الباطنة . ومَنْ ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه .

وأمـــا الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم فكانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معاً ، ولم يجتمعا لأحد بعدهم إلّا أن يكون عمر بن عبد العزيز .

* * *

---

(١) حقن دماءهم ، منعها أن تسفك .

(٣٣)

فصـــل

قـــال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله (السكندري المتوفّى سنة ٧٠٩ هـــ) :

كـــان مذهـــب الشيخ أبي العباس أنّه لا يَلْزَمُ أنَّ يكون القطب شريفاً حَسَنياً ، بل قد يكون من غير هذا القبيل [١] .

*   *   *

(١) وانظـــر الصّـــلة بين التصوّف والتّشيُّع للدكتور كامل مصطفى الشّيبي . (ط٢ – دار المعارف بمصر) .

(٣٤)

فصـــل

قــال الشــيخ تــاج الدين بن عطاء الله : الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله ، وهو الذي تَظْهَرُ طريق المُورِثِ على يديه يفسر مُجْملها ، ويبسُط مختصرَها ، ويرفع مَنارَها ، ويبثُّ أنوارها ، يعرِّف النَّاس بما كان ذلك الرجل عليه من العلم بالله والمعرفة والتَّعوّذ والاحتظاء (١) من نوره ، حتى إذا فرّط (٢) الناس في محبته وتعظيمه في حــياته استدركوا ذلك بعد وفاته ، لأنّ كل ما هو مقدور عليه مَزْهود فيه (٣) ، وكلّ معجوز عنه متطلّع إليه بالشَّغَف (٤) .

قال الشيخ أبو العباس (المُرسي) : يكون الرجل بين أظهرهم فلا يُلْقون إليه بــالاً ، حتى إذا مات قالوا : كان فلان ، وربّما دَخَلَ في طرِيقِ الرجل بعد وفاته أكثر ممّنْ دخل في حياته (٥) .

* * *

---

(١) التعوّذ : الاعتصام ، الالتجاء . الاحتظاء : النَّيلْ ، الاختصاص .

(٢) فرّط : قصّر .

(٣) وأزهد الناس بالعالِم أهله وجيرانه (غالباً أو أحياناً)

(٤) الممـــنوع مــرغوب فيه ، بَيْدَ أنّ المؤمن ما يفتأ يتعهّد نفسه بالتّهذيب والرياضة والمجاهدة حتى يكون هواه تبَعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشُغف به : أحبّه ، وأُولع به .

(٥) بــل هــذا أكثر ما يحدث في الواقع ، لكنّ الأتباع قد يحافظون على أصول سيّدهم ومبادئه ، كــالذين مــا زالوا – ولن يزالوا – يعتصمون بالشريعة الغرّاء والحجّة البيضاء التي كان عليها رســول الله صــلى الله عليه وسلم ، وقد يبتدع الأتباع ويحرّفون ويُحْدثون ، كما صنع أهل الصــين بتعالــيم كونفوشيوس ، وكان حكيماً مُصْلحاً أو نبيّاً ، فقد اتخذوا له الهياكل بعد مماته وعبدوه . وهذا دَيْدَن محرّفي الشّرائع .

(٣٥)

فصـــــل

إذا عرفت ما أوردناه من كلام الأئمّة المتقدّم ذكرهم علمَت أنّ التّصوّف في نفســه علم شريف ، وأنّ مداره على اتّباع السّنّة وترك البِدَع ، والتبرّي من النفس وعوائدهــا وحظوظهــا وأغراضها ومراداتها واختياراتها ، والتّسليم لله ، والرضى به وبقضــائه وطلب محبّته ، واحتقار ما سواه ، كما قال الغزالي : التّصوّف تجريد القلب لله ، واحــتقار ما سواه . وهذا هو المراد من قولهم : الوصول إلى الله . كما قال ابن عباد في شرح الحكم : اعلمْ أنّه ما دامتْ لك هِمّةٌ وإرادةٌ فأنت بَعْدُ في الطّريق لم تصلْ فلو قد فنيتَ عنها لوصلْت .

وقــال بعــض المتقدّمين : الاتّصال أنْ لا يشهَد غير خالقه ، فلا يصل بسِرّه خاطر لغير صانعه.انتهى .

وعلمْتَ أيضاً أنّه قد كَثرَ فيه الدَّخيلُ من قوم تشبّهوا بأهله ، وليسوا منهم ، فــأدْخَلُوا فــيه ما ليس منه ، فأدّى ذلك إلى إساءة الظنّ بالجميع ، فوَجّه أهلُ العلم للتمييز بين الصّنْفين ، ليعلم أهل الحقّ من أهل الباطل .

وقد تأمّلتُ الأمورَ التي أنكرها أئمّة الشرع على الصوفيّة فلم أرَ صوفيّاً محققاً يقــول بشـــيء منها ، وإنّما يقول بها أهل البِدَعِ والغُلاة الّذين ادّعوا أنّهم صوفيّة ، وليسوا بهم .

والراجع منها إلى أصل الدّين [1] أربعة :

الأوّل - وهــو شرّها - : الحلول والاتّحاد ، وهو كفر صريح ، وضلال مبين ولم يقــلْ به أحد من المعتبرين ، وحاشاهم من ذلك . بل مازال المعتَبرُون من الصّوفيّة ينــبّهون على تضليل مَنْ يقول به ، وتكفيره ويحذّرون منه . منهم الغزالي [2] في عِدّة

---

(١) مــا يتعلق بأصول الدين وعقائده ممّا أخذ على أهل البدع والغلاة الدُّخلاء على التصوُّف أربع قضايا ، أو أمور .

(٢) من الصوفيّة المحققين الذين تصدّوا لأصحاب بدعة الحلول والاتّحاد .

مواضع من الإحياء .

قال في باب السّماع : الحالة الرابعة : سماعُ مَنْ جاوز الأحوال والمقامات ، فعزب [1] عن فهمه ما سوى الله ، حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود الذي يُضاهي حالُه حالَ النسوة اللاّتي قطّعن أيديهنّ في مشاهدة جمال يوسف حتى بُهتْنَ وسَقَطَ إحساسهنّ . وعن مثل هذه الحالة تعبّر الصوفية بأنّه قد فَنِيَ عن نفسه ، فهو عن غيره أَفْنَى . فكأنّه فَنِيَ عن كل شيء إلاّ عن الواحد المشهود ، وفَنِيَ أيضاً عن الشهود ، فإنّ القلب إن التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنّه مشاهد فقد غفل عن الشهود .

والمستهتَرُ [2] بالمرئيّ لا التفاتَ له في استغراقه إلى رؤيته وإلى عينه التي بها رؤيته ، ولا إلى قلبه الذي به لذّته ، فالسّكرانُ لا خبر له من سُكْره ، والمتلذّذ لا خبَر له من التذاذه ، إنّما خبرُه من الملتذّ به فقط ، ومثاله العلم بالشيء مهما وَرَد عليه العلمُ بالعلمِ بالشيء كان مُعْرِضاً عن الشيء ، ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حقّ المخلوقين ، وتطرأ أيضاً في حقّ الخالق ، ولكنّها في الغالب تكون كالبَرْق الخاطف الذي لا يثبتُ ولا يدوم ، فإنْ دام لم تُطقْه القوّة البشريّة ، فربما يضطرب تحت أعبائه اضطراباً تهلك فيه نفسه .

فهذه درجة الصدّيقين في الفهم والوَجد ، وهي أعلى الدّرجات ، لأنّ السّماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال ، وهي ممتزجة بصفات البشريّة ، وهو نوع قُصور ، وإنّما الكمال أنْ يفنَى بالكلّيّة عن نفسه وأحواله ، أعْني أنّه ينساها ، فلا يبقى له التفاتٌ إليها ، كما لم يكنْ للنسوة التفاتٌ إلى اليد والسّكّين ، فيسمعُ لله ، وفي الله ومن الله ، وبالله ، وهذه رُتبةُ مَنْ خاضَ لُجّةَ الحقائق ، وعَبَرَ ساحل الأحوال والأعمال ، واتّحدَ بصفاء التوحيد ،وتحقّق بمحْض الإخلاص ، فلم يَبْق فيه منه شيء أصلاً ، بل خَمدتْ بالكُلّيّة بَشَريّتهُ ، وفنِيَ التفاتُه إلى صفاتِ البشريّة رأساً . ولست

---

(١) عزب : غرب ، غاب .

(٢) استُهتِرَ بالشيء : فُتِنَ به ولزمه .

أعْـــني بفنائه فناء جسده ، بل فناء قلبه . ولستُ أعني بالقلب اللحم والدّمَ ، بل سرٌّ لطيف له بالقلب الظّاهر نسبة خفيّة . . .

إلى أن قـــال : ومـــن هنا نشأ خبال [1] مَن ادّعى الحلول والاتّحاد وقال : أنا الحــقّ ، وحوله يُدَنْدِنُ [2] النّصارى في دعوى اتّحاد اللاهوت بالناسوت ، أو تدرّعها بها ، أو حلولها فيها ، على ما اختلفت فيه عباراتهم ، وهو غلط مَحْض .

هذا كلّه كلام الغزالي .

وقال أيضاً في باب المحبّة : مَنْ قويتْ بصيرته ولم تضعفْ مُنّته [3] فإنّه في حال اعـــتدال أمره لا يرى إلا الله ، ولا يعرف غيره ، ويعلم أنّه ليس في الوجود إلاّ الله ، وأفعالُـــه أثـــر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ، فلا وجودَ لها في الحقيقة دونه ، وإنّما الوجــود للواحــد الحقّ الذي بيده وجودُ الأفعال كلّها ، ومَنْ هذا حاله فلا ينظر في شـــيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث إنّه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث إنّه صنع ، فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره ، كمَـــنْ نظَرَ في شِعْر إنسان ، أو في خطّه أو في تصنيفه ، ورأى فيه الشّاعر والمصنّف ، ورأى آثـــاره من حيث إنّه أثره ، لا مِنْ حيث إنه عَفْصٌ وحبر وزاج مَرْقوم [4] على بياض ، فلا يكون نظره إلى غير المصنّف .

وكذا العالَم تصنيفُ الله تعالى ، فمن نَظَرَ إليه أنّه فِعْلُ الله ، وعرفه من حيث إنّه فِعْلُ الله ، وأحبه من حيث إنّه فعل الله ، لم يكنْ ناظراً إلّا في الله ، ولا عارفاً إلّا بالله ، ولا محبّاً إلّا لله ، وكان هو الموحّد الحقّ الذي لا يرى إلّا الله ، بل لا ينظرُ إلى نفسه من

---

(١) خبال : فساد .

(٢) الدّنْدنة : الكلام الخفي يسمع ولا يفهم .

(٣) مُنّته (بضم الميم) : قوته .

(٤) العَفْـــص : شـــجرة البَلّوط ، وثمرها ، وهو المراد هنا ، لأنّ من فوائده أنهم يصنعون منه الحِبْر والصِّبغ . والزّاج الأزرق : كبريتات النُّحاس . مرقوم : مكتوب .

حيث نفسه ، بل من حيث إنّه عبد الله ، فهذا هو الذي يُقال فيه إنّه فنِيَ في التّوحيد ، وإنّــه فــنِيَ عن نفسه ، وإليه الإشارة بقول مَنْ قال : كنّا بِنَا ، ففنينا عنّا ، فبقينا بلا نحن .

فهــذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أَشْكَلَتْ لضعف الأفهام عن دَرْكها ، وقصور قُدْرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مُفْهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعنيهم .

ثمّ قــال : وقد تحزّب النّاس إلى قاصرين مالوا إلى التّشبيه الظاهر ، وإلى غالين مســرفين تجــاوزوا إلى الاتّحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحقّ ، وضلَّ النّصارى في عيسى ، فقالوا : هو الإله . وقال آخرون : تدرّع النّاسوتُ باللاهوت . وقال آخرون : اتّحدَ به .

وأمّــا الذيــن الكشــف لهم استحالةُ التّشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتّحاد والحلول ، واتّضح لهم وجه الصّواب ، فهم الأقلُّون . انتهى كلام الغزالي .

فانظــر وفّقني الله وإيّاك : كيف بيّن أن الفناء عمّا سوى الله وشهود الحقّ أمرٌ اعتباري معنوي لا حسّيّ ، وانّ المراد به إسقاط الغير عن درجة الاعتبار ، وأنّه في حيّز التّلاشي والاحتقار ، وأنّ المراد برؤية الله في كل شيء أنّه يسبق إلى قلبه ذِكْرُ ربّه عند رؤيــة كل شيء . قال بعض العارفين : يسبق إلى قلبه ذكْر ربّه . وانظر كيف صرّح الغــزالي في موضــعين بتغلــيط من قال بالحلول والاتحاد وتضليله وتكفيره و إلحاقه بالنّصــارى ، والغزالي أجَلّ من اعْتُمدَ عليه في تحقيق هذا المقام فإنّه فقيه أصولي متكلّم صوفي محقّق .

وقال القطب القسطلّاني في كتابه السابق ذكره (١) :

المحبّة مبتدأ دخول أودية الفنا ، وأعلاها محبّة خاصّة الخاصّة وهي النّظر إلى ما أهّلهم لــه من حبّه لهم وحبّهم لــه بلا عِلّة ، فتولّهُوا وتاهوا في مهامه تلك الفِكْرة ،

(١)" اقتداء الغافل باهتداء العاقل " .

وفاضت عليها مياه الأسرار الغيبيّة ، حتى غسلتْ منهم دنس التعلّق بالآثار الغيريّة ، فمحَتْ منهم بقايا التَّطلُّعات النفسيّة ، ومحتْ عنهم الالتفاتات إلى الجهات العلوية والسفليّة . وهذه محبّة الصّدّيقين . قال الجنيد : المحبَّةُ إفراط الميل بلا نيل . يعني ميل القلب إلى الرّبّ ، وإلى ما أُمِرَ به مّما يدعو إلى القرب بلا أمل عطاء وجزاءِ ذلك .

وقال أبو يعقوب [1] : لا تصحّ المحبّة إلّا بالخروج عن كلّ الاختيار ، مجرّداً عن النَّظر إلى الأغيار ، بعيداً عن القرب إلى الاعتراض على مجاري الأقدار ، مشغولاً بالحقّ لا يسع وقته إلى شيء غيره ، ولا يندفع حاله إلى شيء من الفترة .

ثمّ قال الجنيد : المشاهدة ثلاثة : مشاهدة من الرّبّ ، ومشاهدة الرّبّ ، ومشاهدة للرّبّ . وقال : فالمشاهدة على ثلاث طبقات : مشاهدة بالحقّ ، وهي نظر الوِجْدان بوجوه الاستدلالات على وحدانيّة الذات . ومشاهدةٌ للحقّ ، وهي نظر الحقّ في قيام المصنوعات وتمام المُبدعات وصيانتها عن الآفات ، ومشاهدةُ الحقّ ، وهي نظر الحقّ قبل الأشياء ، ورؤيته سابقاً قبل الإنشاء ، وهي رؤية خالية عارية عن الوصف ، عالية عن الكشف .

قال سهل بن عبد الله : المشاهدة إقامة الرؤية بأنّ العبودية – مع فقدان الكلّ – دونه .

ثمّ قال : الفناء والبقاء صفتان معتورتان في نفس العبد . إحداهما تخلُف الأخرى ، وهما في لسان الإشارة فناء الوصف المذموم ، وبقاء الوصف المحمود ، فإذا تمّ فناؤه عن الأخلاق والأحوال والأفعال ترقّى منه إلى فنائه عن نفسه وعن الخَلْق باستيلاء شهوده ، ففي هذه الحالة الخَلْقُ ونفسُه موجودان ، وإنّما حَصَلَ له من الذهول ما غيّبه عن الإحساس بوجودهما ، والفناءُ استغراق في شهود مانع عن ملاحظة الحظوظ المتعلّقة بموجود محدود ، فيسقط عنه التمييز بنفي الأشكال اشتغالاً

---

(1) إسحاق بن محمد النهرجوري ، توفي سنة ٣٠٠ هـ . ونهرجور : بين الأهواز وميسان .

بمـا بقـي به ، ففَنِيَ عن رؤية الأشباه والنظائر ، كما رُوِيَ عن عامر بن عبد – أحد التابعين [(١)] – أنه قال : ما أُبالي امرأةً زانية وحائطاً . والمتولّي له في حركاته وسكناته الحـقُّ سـبحانه ، فيقوم بوظائفه ، ويحفظُه في تصرّفاته ، ويحميه عن مخالفاته ، وذلك مستنبط من معنى قوله في الحديث : كنت له سمعاً وبصراً [(٢)] . وأمّا البقاء الذي يخلُفه فهو الإقامة على ما لله عليه بعد الفناء عمّا له من الحظوظ ، فتبقى الأشياء كلّها عنده كشيء واحد ، فهو أبداً دائب في الموافقات دون المخالَفات ، فالباقي بالحقّ عبارة عن عبد فَنِيَ عن نفسه ، فهو يعقل الأشياء لا لحظّ يجلب منفعة أو يدفع مضرّة ، بمعنى أنه لا يقصد ذلك ، بمعنى أنه لا يجدُ حظاً ، بل إذا عمل قُرْبة يقصد بعملها موافقة الأمر لا لذّة نفسه في ذلك العمل ، ولا يطلب ثواباً عليه .

ثمّ قال : ولا يظنّ جاهل بعلوم هذه الطائفة أنّ معنى الفناء هو ترك التّمييز بين حقـائق الأشياء وأحكامها فتصير الموجودات كلّها شيئاً واحداً ، وتبقى المخلوقات له موافقات ، فيبقى النهي عنده كالأمر لفنائه عن التمييز في الأحكام ، فإنّ هذا مذهب معلـول مدخول ذهب إليه مَنْ قصد تعطيل الشرائع وإبطال التكاليف ، وهو مذهب الإباحيّة .

وإنّمـا المعـنى فيه ما قدّمناه ، من أنّه فني عن أوصافه وملاحظات أغراضه ، وبقي بأوصاف الحقّ ، فإنّه إنّما يفعل الأشياء لغيره لا له ، لوجود استغنائه عن المنافع والمضارّ .

وقـال إبراهـيم بن شيبان [(٣)] : الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانيّة وصحّة العبوديّة ، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة .

---

(١) عامـر بـن عبد الله بن قيس العنبري البصري . مات في خلافة معاوية رضي الله عنه في بيت المقدس .

(٢) الإتحافات السَّنِيَة (مؤسسة الزعبي ط٤) ١٣٧ و ١٤٠ .

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرمسيني ، توفي سنة ٣٣٠ هـ .

ونقل معناه عن أبي يعقوب النهرجوري .

وقال أبو سعيد الخرّاز [1] : علامته ذهاب حظّه من الدّنيا والآخرة إلّا من الله ، ثمّ يبدو له بادٍ من حقّ الله فيريه ذهاب حظّه من رؤية حظّه أن يتلاشى عن نفسه وتبقى رؤية ما كان من الله لله ، فذهاب الحظّ من الدّنيا تَرْكُ الأغراض ومن الآخرة تَرْكُ طَلَبِ الأعواض ، وذهابُ حظّه من رؤية حظّه أنْ يتلاشى عن نفسه فلا يرى لها في جانب عظمة الله قدْراً لحقارتها ، فيشتغل بالله عن رؤية ذلك ، فيبقى ما كان لله بالله ، ويَفْنَى عمّا سوى الله ، فيكون ما كان في علم الله قبل إيجاده .

ثم قال : التّوحيدُ يقع في الذات والصّفات والأفعال ، ففي الذات نفي الصفات بالإجراء ، وفي الصفات نفي التّشبيه بالأسماء ، وفي الأفعال نفي الشّريك في شيء من الأشياء

قال الجنيد : أشرف كلمة في التّوحيد ما قاله أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : سبحان مَنْ لم يجعلْ لخلْقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

ثمّ قال : الجمعُ أنْ لا تشهد إلّا الحقّ ، وتفنى عمّا سواه ، فتسلب الإرادات ، وتطرح كُلْفة التطلّع إلى العادات .

انتهى ما لخّصناه من كلام القسطلّاني .

فانظر كيف شرح هذه الألفاظ التي هي مظنّة زلل الفهم شرحاً بيناً واضحاً جارياً على قوانين الشريعة ، مَدارُهُ على إفراد الأمر لله وحده ، وإسقاط ما سواه عن درجة الاعتبار (ألا له الخَلْق والأمر) [2] وعلى ترك الإرادات والاختيارات ، وترك منازعة القدرة ، وترك حظوظ النفس ، والقيام بالأوامر والنّواهي لله وحدَه . لا لجلب ثواب ، ولا لدفع عقاب ، وهذا حالُ مَنْ عَبَدَ الله لله ، خلافَ من عبد الله للثواب

---

(١) أحمد بن عيسى الخرّار ،من أهل بغداد ، توفي سنة ٢٩٧ هـ ، له كتاب " الطريق إلى الله " حققه الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) الأعراف : ٥٤

وخـــوف العقـــاب ، فإنّما عَبَدَ لحظّ نفسه ، وإنْ كان هو محبّة أيضاً ، لكنّه في درجة الأبرار . وذلك درجة المقرّبين .

أخـــرج ابـــن أبي حاتم في تفسيره عن موسى بن الصبّاح قال : إذا كان يوم القيامة يُؤتى بأهل ولاية الله فيقومون بين يديه ثلاثة أصناف ، فيُؤتى برجل من الصنف الأوّل ، فـــيقول : عـــبدي ، لماذا عملْتَ ؟ فيقول : يا ربّ خلقْتَ الجنّة وأشجارها وثمارهـــا وأنهارها وحُورَها ونعيمها ، وما أعددْتَ لأهل طاعتك فيها ، فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليها . فيقول إنّما عملْتَ للجنّة فادْخُلْها ، ومن فضلي عليك أنْ أعتقْتُك من النار . فيدخلها هو ومَنْ معه .

ثمّ يُؤتى برجل من الصنف الثاني ، فيقول : عبدي ، لماذا عملْتَ ؟ فيقول : يا ربّ ، خلقْتَ ناراً ، وخلقْتَ أغلالها وسعيرَها وسَمُومَها ويَحْمُومها [1] ، وما أعددْتَ لأعدائك ولأهل معصيتك فيها ، فأسهرْتُ ليلي وأظمأت نهاري خوفاً منها . فيقول : عـــبدي ، إنّما عملْتَ خوفاً من النّار ، فإنّي قد أعتقتك من النّار ، ومن فضلي عليك أُدْخِلُك جنّتي . فيدخل هو ومَنْ معه الجنّة .

ثمّ يُؤتـــى برجل من الصنف الثالث ، فيقول : عبدي ، لماذا عملْتَ ؟ فيقول : ربّ حبّاً لك ، وشوقاً إليك ، وعزّتك لقد أسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليك ، وحـــبّاً لك . فيقول الله : عبدي ، إنّما عملْتَ حبّاً لي . وشوقاً إليّ فيتجلّى له الربّ ، فـــيقول : هـــا أنا انظر إليّ ثم يقول : من فضلي عليك أنْ أَعتقْتُكَ من النار وأبحْتُكَ جنّتي ، وأُزِيرُك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي . فيدخل هو ومَنْ معه الجنّة .

---

(١) الأغـــلال : جمـــع غُـــلّ ، وهـــو الطَّوْق يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في يديه (القيد) . السّموم : الريح الحارّة والحرّ الشديد . اليَحْموم : الدخان الأسود الحارّ .

وقـــال شـــارح مـــنازل السائرين [1] في بيان عجز العقول عن إدراك الذّات المقدّسة وتَرْك الفِكْرة في ذلك : يَعْرفُ العبد أنّ عقله عاجز عن إدراك كلّ الموجودات مـــن المخلوقـــات ، فضلاً عن خالقها ، وقد عجزت العقول عن إدراك الخاصيّة التي يجذب بها المغناطيس الحديد ، والسقمونيا [2] الأخلاطَ الصّفراويّة ، إلى غير ذلك ، مع القطع بوجودها .

فإذا عرف العبد عجزه وآيس من الوقوف على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التّمسُّك بحبل التّعظيم والإجلال ، وسلم بذلك من الوقوع في مسيء الاختلال .

وقـــال شارح منازل السائرين في شرح معرفة الخاصّة : وإنّما ترجّحت هذه الدرجة من حيث ارتفاع هذه المَصُوفة [3] لا بمعرفة الصفة .

قوله : " وهي تثبت بعلم الجمع " يريد المعارف وتعقّلها بنفس الذات . وذلك أنّ مَـــنْ تحقّـــق عنده العلم بانفراد الحقّ سبحانه بالفعل والصّفة والذات ، وقيام سائر الموجـــودات بما يخلقه لهم وفيهم من الصّفات والحياة ، قاده ذلك إلى جمع الهِمّة عليه ، وعُكُوفها لديه ، وتصفو هذه المعرفة في ميدان الفناء عن ذكر غيره ورؤيته سواه . وإذا فَنِيَ العبد عن غيره كملتْ معرفته ببقائه مع الحقّ ، وقلة غفلاته عنه ، بل عدمها وهو علم البقاء .

---

(١) " مـــنازل الســـائرين إلى ربّ العالمين " ألّفه عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ، أبو إسماعيل (٣٩٦ – ٤٨١ هـــ) . وشـــرحه عبد المعطي بن محمود الإسكندري أبو محمد بن أبي الثّناء (٥٦٣ – ٦٣٨ هـــ) ، وآخرون منهم ابن قيم الجوزيّة في " مدارج السالكين ، شرح منازل السّائرين " وشَرْحُ عبد المعطي بن أبي الثّناء هو الذي اقتبس منه السُّيوطي .

(٢) السّـــقَمُونيا ، نبات يستخرج منه رطوبة دَبِقَةٌ اسمها السّقَمونيا أيضاً ، تجفف ، وتعالج بها المِرّة الصفراء ولزوجات البدن ، وتَطْرُدُ الديدان من البطن .

(٣) بالتخفيف : من صاف الكبشُ إذا ظهر عليه الصوف ، وكثر ، وبالتضعيف من صوّف فلاناً : جعله من الصوفيّة .

وإذا وصل من المعرفة إلى هذا الحدّ في التمكُّنِ شارَفَ عينَ الجمع [1] أي حقيقته ، وصار الجمع له حالاً ، فعين الجمع بخلاف علم الجَمْع .

* * *

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله (السكندري) في الحكم (العطائية) :

كُنْ بأوصاف ربوبيّته متعلّقاً ، وبأوصاف عبوديّتك متحققاً ، منعك أنْ تدّعي ما ليس لك من المخلوقين ، أفيُبيح لك أنْ تَدّعي وصفه وهو ربّ العالمين .

وقال شارحه ابن عبّاد [2] : التّعلّق بأوصاف الربوبيّة ألّا تشهد وجودك ، ولوازم وجودك ، لا شيء من جميع ذلك لك ، ولا منك ، وإنّما هي عَوارٍ عندك ، فلا ترى وجودك إلّا ببقائه ، ولا عزّتك إلّا بعزّته ، ولا قدرتك إلا بقدرته ، ولا غناك إلا بغناه ، إلى غير ذلك من الأوصاف ، ولا يتمّ لك ذلك إلا أنْ تتحقّق بأوصاف عبوديتك ، مِنْ عدَمك وفقرك ، وذُلّك وعجزك . ثمّ أورد بعده كالدّليل على ما ذكره من أنّه لاحظ للعبد من صفات مولاه إلّا التعلّق بها فقط ، وأنّ ادّعاءه شيئاً منها من كبائر معاصي القلب ، ومن مشاركة المربوب للرّبّ ، ومن مقتضى الغَيْرة التي اتّصف بها ، ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجودُ شيء من الشّرْكة في قلب العبد بادّعاء شيء من أوصاف الرّبوبيّة لنفسه عَقْداً [3] أو قولاً ، لأنّ ذلك منازعة له ، كما ورد : " الكبرياء إزاري والعظمةُ ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما قصمته [4] " .

---

(١) وسمّاه القشيريّ : جمع الجمع . قال : " فمَنْ أثبت نفسه وأثبت الخلْق ولكنْ شاهد الكُلّ قائماً بالحقّ ، فهذا هو جمع . وإذا كان مختطَفاً عن نفسه ، مأخوذاً بالكلّيّة عن الإحساس بكل غير . . . فذاك جمع الجمع " [الرسالة القشيريّة ص ١٢٨] .

(٢) ابن عبّاد : محمد بن إبراهيم النّفري الرُّندي من أهل رُندة بالأندلس (٧٣٣ - ٧٩٢ هـ) له مجموعة كتب منها : " غيث المواهب العليّة بشرح الحكم العطائيّة " ويعرف بشرح النفري على متن السكندري .

(٣) عَقْداً : اعتقاداً ونيّة .

(٤) مسلم : البرّ والصّلة ، باب تحريم الكِبْر ٢٦٢٠ وأبو داود : اللّباس ، باب ما جاء في الكبر ٤٠٩٠ وكنز العمال ٣ / ٧٧٤٠ وما بعده و ٧٧٨١ والإتحافات السَّنِيّة ص ٤٥ (ح ٩٠ - ٩٢)

ومعنى المنازعة : الدعوى قولاً وعبارة ، والإضمار قصداً أو إشارة . ومعنى الغيرة في حقّه تعالى أنّه لا يرضى بمشاركة غيره فيما اختصّ به من صفات الرّبوبيّة ، وفيما هو حقّ لـه من الأعمال الدينيّة . وإذا كان الحقّ تعالى منعك وحرّم عليك أنْ تدّعي ما ليس لك ممّا أعطى المخلوقين من الأموال ، وسمّى ذلك ظلماً وعدواناً [1] ، فكيف يُبيح لك أنْ تدّعي وصفه وهو ربّ العالمين ، لا شريكَ له في ذلك ، لا أنت ولاغيرك ؟ ! فهو إذاً أعظم الظّلم وأشدّ العدوان . قال [2] : وهذا المعنى الذي ضمّنه المصنّف [3] هذه المسألة هو مَرْمى نظر الصوفيّة [4] ، وكلُّ ما صنّفوه أو دوّنوه وأمروا بـه ونَهَـوْا عنه من أقوال وأفعال وأحوال إنّما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف ، فشأنهم إنّما هو العمل على موت نفوسهم وإسقاط حظوظها بالكلّيّة . وليس ذلك هو المقصود لهم بالذّات ، وإنّما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى بالوجود ولوازم الوجود انفراداً لا يشاركونه في شيء منه البتّة [5] .

وهذا كيمياء السّعادة الذي أعوز أكثر النّاس ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس ، إذ بذلك يستحقّ المرء عبوديّة الله الذي لا مقام للعبد أشرف منه ، ولهذا المعنى كانت عندهم حقائقُ خَطَرات الحظوظ ، وخفيّات هواجس الهوى وكلُّ ما يقتضي بقاء النفس وثبوتها ، من محبّة المقامات وإيثار الألطاف والكرامات ذنوباً [6] عظيمة وأخلاقاً لئيمة

---

(١) انظر سورة النساء ٣٠ .

(٢) ابن عبّاد في غيث المواهب العليّة بشرح الحكم العطائيّة .

(٣) المصنّف : ابن عطاء السكندري ، مصنّف الحكم العطائية .

(٤) المقصود الصوفيّة الشرعيّة لا المبتدعة ولا المحرّفة . وانظر تفصيلاً عنها في الكتابة الفنيّة في مشرق الدولة الإسلامية لمحمد حسني مصطفى ناعسة (مؤسسة الرسالة) ٥١ و ٣٤٨ و٤٠٢

(٥) البتّة : قطعاً .

(٦) ذنوباً : خبر (كانت عندهم حقائقُ . . . . " .

قادحــة في صــدق العبوديّة والإخلاص للربوبيّة ، يتوبون من جميع ذلك إلى ربّهم ، ويتعوّذون به من شرّه .

وقــال ابن عبّاد أيضاً في شرح قول الحكم : الكونُ كلُّه ظُلمة ، و إنّما أناره ظهــورُ الحقّ فيه ، فمَنْ رأى الكون ولم يشهَده فيه أو معه ، أو قبْلَه ، أو بعْدَه ، فقد أعوزه وجود الأنوار . وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانيّة ولا مكانيّة ،لأنّ الزمان والمكان من جملة الأكوان .

قــال : ومعرفة تفصيل هذا الظهور هو والتّفرقة بين هذه الحقائق على ما هي عليه تعسُر العبارة عنه ، وقد زلّتْ فيه أقدام كثير من النّاس .

وممّــن نصّ على إكفار القائلين بالحلول والاتحاد من أهل التّصوُّف الحافظ أبو نعــيم الأصــبهاني [1] في أول الحلْــية كمــا تقــدّم ، وكذلك القاضي ناصر الدّين البيضــاوي [2] الإمام في التّفسير والفقهوالكلام والأصول والتصوُّف ، وانظر تفسيره المشهور تجدْه مشحوناً بالتّصوّف . وقد نص في سورة المائدة على كُفر مَنْ قال بالحلول والاتحاد .

وقــال القاضــي عــياض [3] في الشفاء ما معناه : أجمع المسلمون على كُفْر أصــحاب الحلــول ومن ادّعى حلول الباري في واحد من الأشخاص ، كقول بعض المتصوّفة والباطنيّة والنصارى والقرامطة .

وانظــرْ كيف نقل ذلك عن بعض المتصوّفة ، وهم الغُلاة منهم . لا كلُّهم ، حاشاهم من ذلك ، وكذلك لم ينقل أصحاب الكتب الكلامية ذلك إلا عن بعضهم .

---

(1) أحمد بن عبد الله (٣٣٦ ــ ٤٣٠هــ) صاحب " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " .

(2) البيضاوي : عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥هــ) .

(3) عــياض بن موسى (٤٧٦ ــ ٥٤٤ هــ) له : الشفا بتعريف حقوق المصطفى كان إمام أهل الحديث في وقته ، ولي قضاء بلدته سبته ثم قضاء غرناطة ، ومات مسموماً بيد يهودي .

قال الشيخ عزّ الدين بن جماعة [1] في شرح الكوكب الوقّاد . يجب أنْ يُنـزَّه الله تعـالى عـن الحلول ، خلافاً للنصارى وبعض الصُوفيّة ، جلّ الله وتعالى عن قولهم علوًّا كبيراً.

وقـال القونوي في شرح التعرّف في حديث " كنتُ سَمْعَه . . " [2] : تأويل الحديـث أنّ الله تعـالى يتولى مَنْ أحبّه في جميع أحواله كما يتولى الوالد والوالدة جميع أحـوال الطفل ، بحيث إنه لا يمشي إلاّ برجْل أحدهما ، ولا يأكل إلاّ بيده فكأنه فَنِيتْ صفاتُه وقامتْ صفات الوالدين مقامَها لشدّة اعتنائهم بحفظه ، وتسخير الله إياهما له .

وكذلك ورد في الحديث : " اللهمّ كَلأةً كَكَلَأَةِ الوليد"(٣) فمعنى : " كنتُ سمعه . . " إلى آخره : أحاطتْ عِنايتي ولُطْفي به ، بحيث يصيرُ فعله وإدراكه كأنّه فعلي وإدراكي .

قـال : وأما ما يشير إليه أصحاب القول بالاتحاد من ادّعائهم كونَ الحديث عـلى ظاهره ، وأنّ الحقّ سبحانه وتعالى مازال سمعاً وبصراً ويداً للعبد حقيقة ، بدليل قـوله : " كنت " وإنّما ظهرتْ له حقيقة الحال حينئذ . . فلا يخفى فساده ، لاستحالة كون القديم صفة للحادث . انتهى .

وقـال الفاكهي ـــ وهو أحد أئمة المالكيّة ، وأحد المتصوّفة ، واحد أصحاب الشـيخ أبي العباس المُرْسي ـــ في حديث : " كنت سمعه . . " فهو فيما يظهر لي على حـذف مضاف ، والتقدير : كنتُ حافظَ سمعه الذي يسمع به ، فلا يسمع إلاّ ما يحلّ سماعه ، وحافظَ بصره كذلك . . إلى آخره .

---

(١).عبد العزيز بن محمد (٦٩٤ ـــ ٧٦٧هـــ) .

(٢) مـن الحديـث القدسي : " من عادى لي وليّاً فقد آذنْته بالحرب . . " [البخاري : الرقاق ، باب التواضع ، رقم ٦١٣٧]

(٣) عـن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ :" اللهمّ واقية كواقية الوليد " وهو في الزهد لابن حنبل ١٠ والسلسلة الضـعيفة ٦٨٦ والكامل في الضعفاء لابن عدي ١ / ٢٩٥ والتاريخ الكبير للبخاري ، ومسند أبي يعلى (٣٦٧٨) والقضاعي (مسند الشهاب) وابن شاهين .

قال : ويُحتمَلُ معنى آخر أدقّ من الذي قبله ، وهو أنْ يكون معنى " سمعه " : مسموعه ، لأنّ المصدر قد جاء بمعنى المفعول ، مثل : فلان أملي ، بمعنى مأمولي . والمعنى أنه لا يسمع إلاّ ذكْري ، ولا يلتذّ إلا بتلاوة كتابي ، ولا يأنس إلاّ بمناجاتيّ ، ولا ينظر إلاّ في عجائب ملكوتيّ ، فلا يمدّ يده إلاّ إلى ما فيه رضاي ، ورجْله كذلك . نقل هذين التأويلين عنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ، ثم قال : وأسند البيهقي في الزهد عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمّة الطريق قال ما معناه : أسْرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع ، وعينه في النظر ، ويده في اللمس ، ورجله في المشي . وهذا تأويلٌ حسنٌ سائغ وهو لإمام صوفي .

ثم قال الحافظ ابن حجر : وحمله بعض المتأخرين من الصوفيَة على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحْو ، وأنه الغاية التي لا شيء وراءها ، وهو أن يكون قائماً بإقامة الله له ، محباً بمحبّته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن يبقى معه بقيةٌ تناط باسم ، أو تقف على رسم ، أو تتعلّق بأمر ، أو توصف بوصف .

قال : ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الحقّ له حتى قام ، ومحبتّه له حتى أحبّه ، ولظره إلى عبده حتى أقبل ناظراً إليه بقلبه . انتهى . ولا إشكال في هذا المعنى أيضاً .

ثم قال الحافظ ابن حجر : وحمله بعضُ أهل الزّيْغ على ما يدعونه منْ أنّ العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة ، حتى يصفّى من الكدورات أنه يصير في معنى الحقّ ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، وأنه يفنَى عن نفسه جملة حتى يشهد أنّ الله هو الذاكر لنفسه ، الموحّد لنفسه ، المحجّد لنفسه ، وأنّ هذه الأسباب تصيرُ عدماً صِرْفاً في شهوده ، وإنْ لم تُعْدَم في الخارج .

ثم قال : ويردّ على الاتحاديّة والقائلين بالوحدة المُطْلقة قوله في بقية الحديث : " ولئن سألني . . ولئن استعاذني . . " فإنّه كالصّريح في الرّدّ عليهم ، يعني حيث أثبت سائلاً ومسؤولاً ومستعاذاً به .

وإلى هنا انتهى بنا القول في إبطال القول بالحلول والاتّحاد وتنـزيه الصدّيقين عـن القول به ، وبراءهم . ومما يُستدلُ به على براءهم منه من حيث الجملة أنّ الأئمّة أهـل الفقـه والكـلام ، وأكابـر أعلام الإسلام ، مازالوا يصحبون أهل الطريق ، ويحضرون مجالس وعظهم ، ويبالغون في الثناء عليهم ، وينقلون عباراهم وإشاراهم في دروسهم وتصانيفهم ، فلو رأوا منهم ما يُشعر بشيء من ذلك لكانوا أوّل النافرين ، وإلى الإنكار مبادرين ، كان إمام الشافعية أبو العباس بن سريج[1] أحد كبار أصحاب الوجوه والفضل على جميع الأصحاب ، حتى قيل إنّه أفضل من المُزَني(٢) ، كذا ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في ترجمته ، يحضر مجلس الجنيد ، ويسمع كلامه ، فيقول أشهد أنّ لهذا الكلام صولة ليستْ بصولة مُبْطِل .

قـال ابـن السبكي في الطبقات عن ابن سريج : إنّه تكلّم يوماً ، فأعْجِبَ به بعضُ الحاضرين فقال ابن سريج : هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم (الجنيد) .

وحكى ابن السبكي في طبقاته عن ابن السمعاني أنّه روى بسنده أنّ أبا القاسم القشـيري[3] حـجّ سنة من السّنين ، وقد حجّ في تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض ، فأرادوا أنْ يتكلم واحد منهم في حرم الله ، فاتفق الكلّ على الأستاذ أبي القاسم فتكلم هو باتفاق منهم .

وكان ولده أبو النّصْر عبد الرحيم أيضاً يحضر عنده الأئمة قال ابن السبكي : لـزم الأئمة ، مثل الإمام أبي إسحاق الشيرازي[4] الذي هو فقيه العراق في وقته عتبة منبره ، وأطبقوا على أنه لم يُرَ مثلُه في تبحُّره .

---

(١) أحمد بن عمر (٢٤٩ ــ ٣٠٦هـ) .

(٢) إسماعيل بن يحيى (١٧٥ ــ ٢٦٤هـ) صاحب الإمام الشافعي وناشر مذهبه .

(٣) عبد الكريم بن هوازن توفي سنة ٤٦٥هـ .

(٤) إبراهيم بن علي (٣٩٣ ــ ٤٧٦هـ) .

ثم قـال ابن السبكي : واعظم ما عَظُمَ به أبو النصر أنّ إمام الحرمين ـــ وهو عَصْـرِيُّه[1] ـــ نقـل عنه في كتاب الوصيّة ، من النهاية " [2] . وهذا فخار لا يعدله شيء .

قلت : ونقل عنه الرافعي[3] والنووي في الروضة [4] .

وكـان الشـيخ أبو الحسن الشاذلي يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشـيخ عزالدين بن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد [5] ، هذا مع ما صحّ عن ابن دقيق العيد من تشديد النّكير على الاتّحادية وتضليل عقولهم ، فلو رأى في كلام الشاذلي ذرّة مِنْ ذلك لكان أوّل مبادر إلى إنكارها .

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن : سمعت الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد يقولُ ما رأيت أعرفَ بالله من الشيخ أبي الحسن الشّاذليّ .

قـال : وأخـبرني مكين الدين الأسمر قال : حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشـيخ عـزّالدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري[6] ، والشـيخ محيي الدين الأميمي . والشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ورسالةُ القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلّمون ، والشيخ أبو الحسن صامت ، وإلى أنْ فرغ كلامهم فقالوا : يا سيدي نريد أن نسمع كلامك .

---

(١) عصـريّه : مـن أهـل عَصْـره ، وهذا اللفظ الفصيح لهذا المعنى ، أمّا لفظ " معاصره " فغير فصيح .

(٢) النهاية : هو كتاب " نهاية المطلب في دراية المذهب " في فقه الشّافعية لإمام الحرمَيْن عبد الملك ابن عبد الله ، أبي المعالي (٤١٩ ـــ ٤٧٨هـ) ، الجويني (جُوَيْنٌ : من نواحي نيسابور) .

(٣) الرافعي : عبد الكريم بن محمد القزويني (٥٥٧ ـــ ٦٢٣هـ)

(٤) يحيى بـن شـرف الـنووي (٦٣١ ـــ ٦٧٦هـ) من مصنّفاته الكثيرة القيّمة " روضة الطالبين " .

(٥) محمد بن علي بن وهب القشيري (٦٢٥ ـــ ٧٠٢هـ) .

(٦) علي بن وهب بن مطيع : والد تقي الدين بن دقيق العيد .

فقـــال : أنتم سادات الوقت وكبراؤه ، وقد تكلمتم . فقالوا : لابدّ أنْ نسمع منك . فســكت الشـيـخ ساعة ثمّ تكلّم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، فقال الشيخ عزّ الدين وقد خرج مِن صدر الخيمة وفارق موضعه : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله .

وكان الشيخ أبو العباس المُرْسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي يحضر مجلسه الأئمة . قال تلميذه الشيخ تاج الدّين في لطائف المنن : كان علماء الزمن يسلمون له هـــذا الشّأن ، حتى كان شيخنا العلّامة شمس الدين الأيكي ، والأصفهاني[1] ، يجلسان بـــين يديه جلوسَ المستفيد ، آخذين عنه ، ومتلقّيْن ما يُبْديه ، حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين في الوقت : يا سيّدي ، أتعرفه ؟ فقال : أعرفه هاهنا ، وأشار إلى الأرض ، ولا أعرفه هناك ، وأشار إلى السماء . قلت : فلو كان في طريقة المرسي وكلامه شيء من الاتحاد لم يَقْرِبْه الأصفهاني الذي محلّه من علم الكلام والأصول بالمحلّ المعروف .

وكـــان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله يحضر مجلس وعظه الأئمة مثل الشيخ تقـــيّ الديـــن السُّـــبكي[2] إمام وقته تفسيراً وحديثاً وفقهاً وكلاماً وأصولاً ومنقولاً ومعقـــولاً ، بـــل المجتهد الذي لم يأتِ بعده مثله ، ولا قَبْله من دهر طويل . وقد ذكر الســـبكي في بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين وحضوره مجلسه ونقل عنه بعض كلامـــه ، وقال إنه متكلّم الصّوفيّة على طريق الشّاذليّة . وفي المعجم المخرج للسبكي أنـــه قرأ عليه كتابه الحِكم ، وذكر فيه قطعة منه قُرئت عنه واتّصلت لنا بالسَّندِ إليه ،

---

(١) محمد بن محمود ، أبو عبد الله (٦١٦ ـــ ٦٨٨هـــ) ، من كتبه : " شرح المحصول للرازي " و" تشييد القواعدِ في شرح تجريد العقائد " و" القواعد " في أصول الفقه والدّين " . و" العقيدة الأصفهانية " .

(٢) علي بن عبد الكافي (٦٨٣ ـــ ٧٥٦هـــ) .

ولـــو كان في طريق الشاذلية أدنى عِوَج لم يُثن عليها السبكي ، ولا ولده[1] ولا أئمة عصره ، ومَنْ قاربهم .

ولمّا كانت طرُق التصوُف دخل فيها الدّخيل ، وكانت الطريقة القوية الخالية من البدع ، الجارية على قوانين الشريعة ، طريقة الجنيد وأتباعه . قال ابن السبكي في " جمـــع الجوامع " : " . . وأنّ طريق الجنيد وصَحْبه طريقٌ مَقوَّم ، وطريق الشاذلية في المـــتأخرين هي طريق الجنيد ، فإنّها ـــ كما يُعْرَفُ منْ تأمُّل كلام الشاذلي في التعاليق الـــتي رويت عنه ، وكلام الشيخ تاج الدين في كتبه ـــ : دائرة مع الكتاب والسُنَّة ، واقفـــةٌ مع الشّرْع ، زاجرة عن الخواطر التي لم توزنْ بميزان الشريعة ، كما سيأتي نقل شيْء من ذلك في الأمر الرابع .

* * *

قال سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى ، ونفعنا ببركاته والمسلمين :

تَمسَّـــكْ بحـــبّ الشـــاذليّةِ تَلْقَ ما ... تَرومُ وحَقّقْ ذا الرَّجاءَ وحَصِّلِ
ولا تَعْـــدُوَنْ عيـــناك عـــنهم فإنّهمْ ... شمـــوسُ هـــدى في أعين المُتأمّل

فـــإنْ قلتَ : في كلام كثير ممَّنْ نُسبَ إلى السَّداد والاستقامة ما يُشعر بذلك ، كابن الفارض [2] وابن العربي [3] وسيدي محمد وفا وولده سيدي علي .

---

(١) عبد الوهاب بن علي (٧٢٧ ـــ ٧٧١هـــ) .

(٢) عمر بن عليّ (٦٣٢ هـــ) .

(٣) محيي الدين بن عربي محمد بن علي (٦٣٨ هـــ) .

قلـــت : الجـــواب عـــن ذلك الاعتذار ، والتأويل ، فإنّ حُسْنَ الظّنّ بآحاد المســـلمين واجب ، فضلاً عمّنْ تواردتْ الألسنة بالشهادة له بالولاية ، فإنّ ثناء الناس بذلك شاهد صِدْق كما نصّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . وقد قال عمر ابن الخَطّاب رضي الله عنه : لا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجتْ من أخيك سوءاً وأنتَ تجدُ لها في الخير محملاً (٢) .

وقـــد كـــان ابـــن الفارض في زمن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري ، واجتمع به ، وسمع مِنْ شعره ، وذكره في معجمه ، ولم يَصِفْه بسوء عقيدة . وقد أثنى علـيه الشـــيخ عفيف الدين اليافعي ، أحد أئمّة الشافعيّة ، وأحد الأولياء الكبار ، في كتابه كفاية المعتقد ونكاية المنتقد .

وابـــن العـــربي ، أثنى عليه اليافعي في كتابه المذكور ، والشيخ تاج الدين بن عطـــاء الله في كـــتابه " لطائف المنن " وهما شاهدا عدل مقبولان في تزكية مثل هذا . فهما فقيهان صوفيّان .

قلـــتُ ذلـــك صَوْناً عن الوقيعة في أحد ، وحفظاً للسان ، لا رضى بالنّظر في الكتب المنسوبة إليه ، ولا إذْناً في قراءتها لكلّ أحد ، ومعاذ الله أنْ آذن لأحد في ذلك ثم لا آذن .

---

(١) مـــرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النّبي صلى الله عليه وسلم : " وجبتْ " ثمّ مرّوا بأخرى فأثنوا عليها شرّاً ، فقال : " وجبتْ " فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبتْ ؟ قال : " هـــذا أثنيتم عليه خيراً فوجبتْ له الجنّة ، وهذا أثنيتم عليه شرّاً فوجبتْ له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض " [الـــبخاري : الجـــنائز ، باب : ثناء الناس على الميت ١٣٠١ وانظر الحديث الـــذي بعده (١٣٠٢) ومسلم الجنائز ، باب فيمن يُثنى عليه خير أو شر من الموتى ٩٤٩ . كلاهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه] .

(٢) مـــن جملـــة ثماني عشرة حكمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رواها الخطيب البغدادي في المتفق والمفترق ، وابن عســاكر ، وابن النّجار والأصبهاني (في الترغيب والترهيب) والهندي في كنـــز العمّال ١٦ / ٤٤٣٧٢ (عن سعيد بن المسيّب) .

وممّنْ نقل كلام ابن العربي وابن الفارض في تأليفه الشيخ علاء الدين القونوي أحد أئمة الشافعيّة ، وهو شارح الحاوي فقيه أصولي صوفي متكلّم علّامة محقّق . فهذا جواب إجمالي وتفصيله بأمور .

فأما الاعتذار فبأمرين :

أحدهما : جواز أن يكون ذلك صَدَرَ حالَ سُكر وغيبة وقد تقدّم في كلام ابن السبكي الاعتذار بذلك ، وأنّ الله رفع التكليف عمَّن غاب عقله ، فلا يؤاخذ بذلك ، ولا تحـلّ الوقـيعة فيه بسبب ذلك ، وإنّما الإنكار على من يتلقّى ذلك الكلام على ظاهره ويعتقده ويعتمده ، فهذا يُنكر عليه أشدّ النكير . ولهذا قال ابن سريج لمّا استفتي عن الحلاج : هذا رجل خفِيَ عنّي حاله ، فلا أقول فيه شيئاً [1]

كأنّه لم يثبتْ عنده أنّه قال تلك الكلمة في حال صحو .

---

(١) في آثـار ابن الفرض أشعار توهم بوحدة الوجود ، لكنْ يمكن إسقاطها على أنها منحولة ، أو تأويـلها على نحو يُقبل مَعْناه . واختلف في ابن عربي ، وأشدّ اتّهام له قوله بالاتّحاد ، والسير في فلـك ابن مَسرَّة الباطني (وهو محمد بن عبد الله القرطبي ، توفي سنة ٣١٩ هـ) الذي تقدّمه بحـوالي ثلاثة قرون . وقال أنصار ابن عربي : هو قطب الأقطاب ، والشيخ الأكبر . وفي آثاره الباقـية مـا يكفّر القائلين بوحدة الوجود ، فيمكن أن ندرأ عنه وننفي عنه كل نصّ مريب ، ونعـدّه مدسوساً عليه . لكنّ إجماع علماء بغداد على قتل الحلاج بسيف الشريعة لا سبيل إلى الطعـن فيه ، ولو كان ثـمّة مجال لتأويل ما عُزِي إليه من ادّعاء الألوهية والحلول والاتّحاد وإسقاط التكاليف ، وتحريف الشريعة الإسلامية ، لأوّله أولئكم العلماء ، ولبرّؤوه ، ومن الخطأ تمـييع الأحكام . أمّا توقّف الفقيه الجليل أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج المتوفّى عام ٣٠٦ هـ فلأنّ اتّهامات الحلّاج لمّا تكن قد ثبتتْ عليه ، ثم محّصت من بعده ، واستوفيت دراسة ، وصُـرِع بها الحلّاج سنة ٣٠٩ هـ . وانظر – إنْ شئت إسهاباً – فيما سبق أنْ كتبته عنهم في تاريخ شعراء العربية (العصر العباسي الثاني – عمر بن الفارض) و (شعراء العصر الأندلسي – ابن عربي) والكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلاميّة ٥٧ و ٣٥٨ و ٤٠٢ .

الثاني : جواز أنْ يكون ذلك الكلام مفترى عليه ، ودُسَّ في كتابه أو ديوانه ، إمّا مِنْ عدوّ حاسد يريد شيْنه بذلك ، وتنقيصه كما وقع كثيراً للعلماء ، وذكروا عن شرح التَّنْبيه للجيلي أنه مشحون بغرائب لا تُعْرف في المذهب ، وأنّها ليستْ منه ، بل أدخلها فيه بعض الحسَدة فأفسد فيها الكتاب .

وإمّا من زائغ مُلْحد أراد ترويج أمره ونُصْرة معتقده ، فدَسَّ هذا الكلام ليأخذه الناس بالقبول ، لإحسانهم الظَّنّ بهؤلاء الأخيار .

وقد أخبرني بعض القضاة ممّن أثق به أنّ الشيخ عبد الكريم الحضرمي — أحد الأئمة السادة الكبار ، وقد اجتمعتُ أنا به بمكّة الشريفة في مرض موته — سئل عن بيت من كلام ابن الفارض ، وهو قوله :

وإذا سألْتك أنْ أراكَ حقيقةً ... فاسمحْ ولا تجعل جوابي لن ترى

فقال : هذا ليس من كلامه ، فإنّ ابن الفارض عارف ، والعارف لا يقول مثل هذا .

وأما التأويل فبأمور :

أحدها أنّ العبارة عن المعاني المدْركة بالوجدان على ما هي عليه تعْسُر جداً ، ألا ترى أنّ الشخص لو أراد أن يصف لذّة الجماع لِمَنْ لم يباشرْه ، بعبارة توصل ذلك إلى فهمه على حقيقته لم يستطع ذلك أبداً ؟

ومن الأمور المقرّرة في العقول أنّ البديهيّات والضروريّات لا يمكن حدّها [1] .

وقد قال الإمام فخر الدّين : إنّ العلم لا يحدّ لأنّه ضروري .

وقال إمام الحرمين : إنّه نظريٌّ عَسِرَ الحدّ ، فيُدر للعارف منهم معنى قائماً بقلبه ، فيريد التّعبير عنه فلا يمكنه عبارة تُطيعه ، فيأتي بعبارة موهمة ، كما قال

---

(١) حدّها : التعريف بها .

الغــزالي في الفــناء : إن العلماء به قصرتْ عبارتهم عن إيضاحه وبيانه بعبارة مُفهمة موصلة للغرض إلى الإفهام .

وكمـــا قال ابن عبّاد في مراتب الشهود : إنّ التفرقة بين حقائقها على ما هي عليه تعسر العبارة عنها ، وإنه زلّت بسبب ذلك أقدام كثير من الناس .

وقـــال صـــاحب التعرّف : مشاهدات القلوب ومشاهدات الأسرار لا يمكن العـــبارة عنها على التحقيق ، بل تُعلَم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا مَنْ نازل تلك الأحوال .

زاد القونـــوي في شـــرحه : ونظير ذلك حال المسرور والمهموم ومن اتّصف بالسرور والهموم .

قال : وقد يجد الإنسان في نفسه أموراً يتحقّقها وتضيق عنها عباراته ، ويقصر عن تعريفها إشاراته .

الـــثاني : أن يكون من استعمال اللفظ في معنى آخر غير المشهور على ألسنة العلماء ، تواضعاً منهم [1] أو اصطلاحاً بينهم ، كلفظ الاتّحاد ، فإنّه يُطلق على المعنى المـــرادف للحلول ، كما جمع بينهما الغزالي والبيضاوي ، وذلك كفر ، ويُطلق بمعنى التوحيد وإفراد الأمر كلّه لله . وقد نبّه على ذلك من أئمة التّحقيق العلّامة سعد الدّين التفتازاني ، ولهذا قال سيدي علي وفا في قصيدة :

يظـــنّون بي حلـــولاً واتّحاداً وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرّأ من الاتّحاد بمعنى الحلول . وقال في أبيات أُخَر :

وعـــلمك أنّ كلّ الأمر أمري هـــو المعنى المسمّى باتّحاد [2]

---

(١) تواضعوا عليه : تعارفوا عليه ، اصطلحوا عليه .

(٢) علمك : الكاف تعود إلى العبد . والياء في أمري : تعود إلى الله تعالى .

فذكر أنّ المعنى الذي يريدونه بالاتّحاد — إذا أطلقوا — هو تسليم الأمر لله وترك الإرادة معه ، والاختيار والجرْي على مواضع أقداره ، من غير الاعتراض ، وترك رؤية الخلْق ونسبة العطاء والمنْع مثلاً إليهم .

وقال أبو يعقوب : الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه ، ولا عدوّ فيفسده ، ولا النّفس فتُعْجَبَ به .

قال صاحب التعرُّف : معناه انقطاع العبد إلى الله ، والرجوع إليه مِنْ فعْلهِ .

قال القونوي : أيِ إذا كمل انقطاع العبد إلى الله وفناؤه عن فعله يصيرُ كلا فعل ، فكأنّه لم يفعل شيئاً ، فلا المَلَكُ يكتبه ، ولا العدوّ يُفسده ، ولا النفس تعجب به أي على سبيل التّشبيه والتقدير ، إذ التقدير أعطى الموجود حكم المعدوم ، أو بالعكس .

قال : وأكثرُ ما يقع في كلام هذه الطائفة من الإشارات محمول على هذا النّوع من الاستعارات ، ومن حملها على ظاهرها أشكلت عليه معانيها ، فأساء الظنّ بهم انتهى .

الثالث : أنْ يكون ما وقع في ألفاظهم مضافاً إلى أنفسهم وهو ممّا لا يُضاف إلّا إلى الله تعالى ، فإنّهم يقصدون به حكايته عن الله . فإنّ الكلام ينقسم إلى ما يحكيه المتكلّم عن نفسه ، وإلى ما يحكيه عن غيره وإن لم يصرح بالإضافة إليه ، كحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضْتُ صفيّه من أهل الدنيا ثمّ احتسبه إلا الجنّة " [(١)] فهذا إنّما قاله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربّه ، وإنْ لم يصرّح به .

وقال تعالى : (وما منّا إلّا مقام معلوم) [(٢)] فهذا على لسان الملائكة

---

(١) البخاري : الرقاق ، باب العمل الذي يُبتغى به وجه الله ، رقم ٦٠٦٠ ولكنّه يُصرّح بأنّه من كلام ربّنا ، ولفظه : عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يقول الله تعالى : ما لعبدي . . .) .

(٢) الصّافات ١٦٤ .

وقال : ﴿ وما نتـــنـــزّل إلّا بأمر ربّك ﴾ (١) فهذا على لسان جبريل .

وهذا نوع لطيف حرّرْتُ الكلام فيه في " الإتقان " .

ومثاله قولُ سيدي علي وفا رحمه الله تعالى والمسلمين :

كمـــالك طاعتي في كلّ حالٍ ... ونقصـــك أنْ تعاند في مرادي

فإنّ هذا قاله على لسان الحقيقة . وكذا قول ابن الفارض :

وإنْ عَـــبَدَ النّار المجوسُ وما انطَفَتْ ... كما جاء في الأخبار في ألف حُجَّةِ

فما عبدوا غيري ،وما كان قصدُهم ... سوايَ ، وإنْ لم يضمروا عقد نيّتي

قاله أيضاً على لسان الحقيقة ، مشيراً به إلى أنّ عبادة الكفّار وسجودهم للنّار والصّـــنم والوثَن واقع في الحقيقة لله تعالى ، لأنّ المذكورات أقلُّ أنْ تُعبد ويُسْجَدَ لها ، فـــتقع السجدة لله على رغم أنف السّاجد ، وهو كافر بنيّة السجود لغير الله . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد مَنْ في السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً ﴾ (٢) .

أخـــرج ابـــن أبي حـــاتم في تفسيره عن قتادة في الآية قال : المؤمن يسجد لله طائعـــاً ، والكافـــر يســـجد لله كارهاً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسندصـــحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) (٣) الآية ، قال : عبادتهم لي أجمعين طوعاً وكرهاً (٤) .

---

(١) مريم ٦٤ .

(٢) الرعد ١٥ .

(٣) آل عمران ٨٣ .

(٤) وقـــال ابـــن كيسان : المعنى : وله خَضَعَ مَنْ في السموات والأرض فيما صوّرهم فيه ودبّرهم علـــيه ، ومـــا يحـــدث فيهم ، فهم لا يمتنعون عليه ، كرهوا ذلك أو أحبّوه ، رضوا بذلك أو سخطوه " [البحر المحيط لأبي حيان (دار الفكر) ٢ / ٥١٥ .

وأمّا حسْنُ الظّنّ وعدم الوقيعة فذاك هو الذي دلّت عليه الآيات والأحاديث والآثـــار ونصوص العلماء ، ولأنْ يخطئ الإنسان في عدم السّبّ خيرٌ من أن يُخطئ في العقوبة .

والمقصـــد الشرعي من التحذير حاصل بالتّنفير من ذلك الكلام من غير وقيعة فيمن نُسِبَ إليه . وقد قال بعض الأئمة : لو عاش الإنسان عمره كلّه لم يلعن إبليس ، لم يسأله الله عنه .

وقال السّبكي في فتاويه : اعلمْ أنّا نستصعب القول بالتكفير ، لأنّه محتاج إلى تحرير المعتقد ، وهو صعب من جهة الاطّلاع على ما في القلب ، وتخليصه عما يشبهه ، وتحريـــره ، ويكـــاد الشـــخص يصعب عليه تحرير اعتقاد نفسه ، فضلاً عن غيره ، واعـــترافُ الشـــخص به هيهات أن يحصل . وأمّا البيّنة في ذلك فصعب قبولها ، لأنّها تحتاج إلى ما قدّمنا .

وسئل الشيخ وليّ الدّين العراقي عن ابن العربي وابن الفارض فأجاب : ينبغي عندي أنْ لا يحكم على ابن العربي نفسه بشيء ، فإني لستُ على يقين من صدور هذا الكتاب عنه ، ولا استمراره عليه إلى وفاته .

قال : وأما ابن الفارض فالاتحاد في شعره ظاهر ، لكنّ علماء عصره رووا عنه في معاجمهم ، ولم يترجموه بشيء من ذلك .

فقـــال الحافظ زكي الدّين عبد العظيم المنذري في معجمه : عمر بن علي بن مرشـــد الشافعي الأديب ، سمع من القاسم بن أبي القاسم بن عساكر ، وحدّث عنه ، سمعت عنه شيئاً من شعره .

وقـــال الحافظ رشيد الدين العطّار في معجمه : الشيخ الفاضل الأديب : كان حسن النّظم متوقّد الخاطر ، وكان يسلك طريق التّصوّف ، وينتحل مذهب الشافعي ، وأقام بمكة مدّة ، وصحب جماعة من المشايخ .

وقال الحافظ أبو بكر بن مسدي في معجمه : بارعٌ في الأدب ، وكان رقيق الطبع ، عذب النَّبْع ، فصيح العبارة ، دقيق الإشارة ، سلس القياد ، نبيل الإصدار والإيراد ، متطرّق متصوّف ، كالروض الملفوف ، وتخلق بالزّيّ ، وتزيّا بالخلق وجمع من كرم النفس كلّ متفرّق . انتهى .

* * *

وأمّا عدم الإذن في قراءة هذه الكتب فنقول :

إمّا أنْ تكون لا تأويل لها صحيح ، فواضحٌ أنّ قراءة مثل ذلك لا تجوز .

أو يكون لها تأويل صحيح ، ومخلص سائغ ،فهنا كلامان .

أحدهما القارئ : ونقول له : ما مرادك بقراءتك هذه الكتب : أمجرّد فَهْم العلم ؟ فهل أتقنتَ علوم الشريعة المهمّة ، من الفقه الذي هو تكاليف مَحْضة ، والحديث الذي هو آداب سُنّيّة ، والتفسير الذي هو معارف عَلِيّة ، والآلات [1] التي يتوصّل بها إلى فهم ذلك ؟ كلا والله لا أتقنتَ ذلك ولا بعضه ، ولا المقرئ أيضاً ، فهذا خروج عن قانون الأدب والعقل ، حيث تترك الاشتغال بالعلم المهم إلى غير المهمّ ، وإن كان مرادك أن تصير بقراءتها صوفيّاً محقّقاً ، فو الّذي فَلَقَ الحبّة وبرأ النَّسمة ، لو قرأت من هذه الكتب عدد رمل عالج ، في مدّة عمر نوح ، لم تَصرْ صوفياً حتى يَلِجَ الجملُ في سَمّ الخياط .

إنّما التّصوُّف : الدُّؤوب في الطاعات ، وترك المخالفات ، وفَطْم النفس عن المألوفات ، وعدم التطلّع إلى ما في أيدي الناس من الأموال المباحات ، فضلاً عن الشّبهات ، وترك التوصُّل بالخَلْق ، والاعتماد على الله في كلّ الحالات ، وترك النظر إلى صحبة الملوك والأمراء فضلاً عمَّنْ سواهم من أهل الهيئات .

---

(١) الآلات : علوم الآلة ، والآلة : أداة العمل البسيطة ، وأهمها النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع . . .

قــال الجنيد : ما أخذنا التصوّف من القال والقيل ، ولكنْ عن الجوع وترك الدّنيا وقطع المألوفات .

وإذا كــان أهــل الطــريق ذمّوا مَنْ يشتغل بدقائق الفقه التي لا يُحْتاج إليها إلاّنادراً ، كغَويص مسائل الحيض والإجارة والمساقاة وغير ذلك ، ورأوا العكوفَ على لزوم الطّاعة وتطهير النفس أوْلَى ، فكيف يسمحون للسالك بقراءة هذه الكتب التي لا تدخُّلَ لها في السلوك ، ولا في تربية المريد ، وإنّما هي إشاراتٌ مَحْضة عن وِجْدانيات حصــلتْ لهم عند انتهائهم ، فرمزوا إليها ، وليس للسالك حاجةٌ بها ، ولا تعويلَ في سلوكه عليها ؟

وقــد ذكــر الغزالي في الإحياء سرّاً من الأسرار ، ثمّ قال : لعلّ القَدْر الذي ذكــرْناه كان الأَوْلى تركه ، إذْ سالك هذه الطّريق لا يحتاج إلى أنْ يسمعه من غيره ، والذي لم يسلكْه لم ينتفعْ بسماعه ، بل ربّما يتضرّر به ، إذْ يُورثه ذلك دهشةً منْ حيثُ لا يفهم . انتهى .

ولم يُعْهَــدْ لأحد من أئمّة الطّريق قديماً ولا حديثاً عقد حلقة لتدريس مثل هذه الكتــب وتقريــرها ، كما يقرّر سائر العلوم ، وإنّما يأخذون المُرِيد بالخلوة والانفراد وملازمــة العبادات والذّكر والأوراد ومجاهدة النفس ونحوها من وظائفهم المعروفة إلى أنْ يفتح الله عليه .

وكان المتوجّه منهم ممّن أُذِنَ لــــه يعقد مجلساً للوعْظ يتكلّم فيه على الناس بالمواعظ الحَسنة ، والحِكَم المستحسنة ، ويشير إلى ما في بواطنهم من الخبائث بما أطلَعه الله عليه من الكشف ، ويصدع بالحقّ بصدق وإخلاص ، فيُصلح الله بمواعظه خلْقاً ، ويَشفي أدواءً وينوّر قلوباً ، ويهدي بصائر من حيث لا يشعرون .

هــذا مصطلح القوم ، وبه كانوا يعملون ، ولمثل ذلك كان ابن سريج يحضر مجلــس الجنــيد ، والشــيخ أبو إسحاق الشيرازي يحضر مجلس أبي نصر القشيري في الكلام .

الثاني : يتعلّق بالمُقْرَئ

فــنقول له أيّها الشيخ – نفعنا الله وإيّاك – عليك أنْ تأخذ المريدين بالآداب الــتي قرّرها أهل الطّريق ، ولا تمكّنهم من قراءة هذه الكتب التي هي مَضِلّة الفهوم ، عــلى تقدير أن يكون من المحقّقين العالمين بتأويله على أحسن المسالك ، فإنّ اشتغالهم بهذه يشغلهم عمّا هم بصدده من السير .

هــذا عــلى تقديــر أن يكونوا مستعدّين لفهمها ، ذوي أذهان صحيحة ، لايقبلون البِدعة ، ولا تروج عليهم الشُّبْهة . فكيف إذا كانوا على خلاف ذلك ؟

ولــو لم يكن [1] إلّا عدم معرفتهم بقواعد علم الكلام ، وما يجوز على الله وما يستحيل عليه من الصفات ، ما يتعلّق بالنبوّات ، وما يتعلّق بحدوث العالم ، وما يترتب على ذلك من الأمور المهلكات .

عافانا الله من كلّ بلية ، وعصَمنا من الزّيغ ، إنّه جواد كريم ، ﴿ ربّنا لا تُزغْ قلوبــنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمةً إنّك أنت الوهّاب ﴾ ، وأخرجْ حبّ الدُّنيا من قلوبنا فإنّه رأس كلّ خطيئة ، وانزِع حبّ الرئاسة من رؤوسنا ، فإنّ النفس أمّارة بالسّوء ، حبّاً للمراتب العليّة .

الــلهم ارزقنا عصمةً بك ، واستمساكاً بكتابك ، ووقوفاً تحت أقدام نبيّك سيد المرسلين ، وإمام المتّقين ، وقائد الغرّ المحجّلين [2] ، لا أريد بسنّته بدلاً ، ولا أبغي عنها حِوَلاً ، ولا أتزحزح عن آدابها السّنيّة لا قولاً ولا فعلاً ، في ليلي ونهاري وعشيّتي وإبكــاري ويقظتي ومنامي ومحياي ومماتي . مَنْ ذا الذي يصلُ إلى مولاه من غير بابه ، ومَــنْ ذا الذي يُوثق بعُرَاه سوى كريم أحبابه ؟ صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى سادات السّادات : آله وأصحابه .

---

(١) جواب الشرط المحذوف يفهم من السياق (لكفى لهم رادعاً عن الغوص في لجّة تلك الكتب)

(٢) الغــر : البيض . يُحْشر المؤمنون يوم القيامة بيض الوجوه . والتحجيل في الوضوء : إسباغه ، دون إسراف ، لتكون محالّ التحجيل زينة لصاحبها يوم القيامة .

تذنيب :

(التخلّق بأخلاق الله تعالى) : تقدّم ذكْرُ التخلُّق بالصفات ، فربما ظُنّ أنّ المتخلّق اتّصف بصفات الله حقيقة ، وهذا مُحال . إنما أخذ الاسم فقط لا معنى الذي وُصِف به الباري ، بل بمعنى حادث يليق بالعبد ، كما تقدّم تقريره في كلام القسطلاّني .

فالرحيم – مثلاً – تُطلق على الله وعلى غيره ، لكنّ معناه في حقّ العبد رقّة القلب ، وهو مُحال على الله ، فالرحمة في حقه سبحانه إرادة إيصال الخير أو فعلِه ، على الخلاف في كونها صفةَ ذات أو صفة فعل .

قال الغزالي في الإحياء : الأسامي كلّها إذا أُطلقت على الله وعلى غير الله لم تطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً حتى إنّ اسم الموجود الذي هو أعظم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخَلْق بوجه واحد ، بل كلُّ ما سوى الله فوجوده تابع لوجوده (سبحانه) ، والوجود التابعُ لا يكون مساوياً لوجود المتبوع ، إنّما الاستواء في إطلاق الاسم .

نظيره اشتراك الفرس والشّجر في اسم الجنس وليسا متشابهيْن في الجنسية .

وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر ، كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها ، فكلُّ ذلك لا يشبه فيه الخالق الخَلْق . انتهى [1] .

وهاهنا انتهى الكلام في الأمر الأول ، وهو التنزيه عن الحلول والاتّحاد . وقد أطلنا فيه ، وحقّ لنا أنّ نطيل ، فإنّه مزلّة أقدام .

* * *

(١) أي انتهى كلام الغزالي .

الأمر الثاني : القول بالإباحة .

وهذا أيضاً لم يقل به أحد من المعتبرين . وإنّما قال به بعض الغلاة ، زعموا أنّ الإنسان إذا وصل إلى حدّ الفناء سقط عنه التّكليف ، وأبيحتْ له المحرّمات . وقد تقدّم في كلام القسطلاني الإشارة إلى ذم ذلك ، وأنّه زندقة ، وكذا في كلام أبي نعيم .

قال القاضي عياض ما معناه الإجماع على تكفير مَنْ قال بتعطيل الأوامر والنواهي من المتصوّفة وأصحاب الإباحة .

وقال القونوي في شرح التّعرّف : يُحكى عن طائفة من أهل الزّيغ والضّلال أنّ العبد إذا وصل إلى الله سقط عنه التكليف . وعللوا ذلك بأن المقصود من التكليف هو القرب والوصول إلى الله ، فإذا حصل المقصود فلا حاجة إلى الوسيلة . وهذا مَحْض الكفر والإلحاد في دين الله ، فإنّ من المعلوم بالضرورة أنّ أقرب النّاس إلى الله أنبياؤه ورسله . ولم يرتفع عنهم التّكليف إجماعاً ، فمَنْ دونهم أولى .

قال : وذكر الغزالي أنّه إنْ وقع في كلام أحد من المعتبرين ما يوهم ذلك فتأويله أنّه يسقط عنه كُلفة التكليف لا نفس التّكليف ومعنى ذلك أنّه يتلذّذ بالعبادات فلا يجد لها كلْفة في الصّلاة وقوله : " أرحنا بها يا بلال " (1) ونحو ذلك . انتهى .

والدليل على أنّ طريق الجنيد والشّاذلي بريئة من ذلك ما ذكر في ترجمة الجنيد أنّه حَضَرَ وقتُ موته وهو يصلي ، فكان قاعداً يصلّي ويثني رجليه كلّما أراد أن يسجد ، فلم يزلْ كذلك حتى خرجت الروح من رِجْله ، فصلّى وهي ممدودة ، فقيل له : لو اضطجعت . فقال : هذا وقت يؤخذ منه ، ولم يزل ذلك حاله حتى مات .

وقال عبد الرحمن السُّلمي : سمعت جدّي يقول : دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد وهو في النّزع فسلّم عليه فلم يردّ عليه ، ثمّ ردَّ عليه بعد ساعة ، فقال : اعذُرني فإني كنت في وِرْدي . ثمّ حوّل وجهه إلى القبلة وكبّر ومات .

---

(1) صحيح رواه أحمد ٢٢٩٨٢ وأبو داود (الأدب – صلاة العتمة) ٤٩٨٥ و ٤٩٨٦ والبيهقي (الصلاة) ١ / ٣٩٠ .

وقـــال أيضــاً : سمعت عبد الواحد بن بكر قال : سمعت محمد بن عبد العزيز يقـــول : سئل الجنيد عمّن لم يبقَ عليه من الدنيا إلّا مقدار مصّ نواة . فقال : المكاتَبُ عبدٌ ما بَقِيَ عليه درهم .

وقـــال الشيخ (أبو العباسِ المُرْسي) في دعائه لّما قال : وأعطنا كذا وكذا ،و الـــرِّزْق الهنيَّ الذي لا حجاب به في الدُّنيا ، ولا عقاب عليه في الآخرة ، على بساط التوحيد والشّرع .

قـــال الشيخ تاج الدين في " التنوير " [١] قوله : " على بساط التوحيد " أي عـــلى أن أشـــهدك فيما رزقتني ، وأراك فيما أطعمتني ، فلا أشهد ذلك من غيرك ، ولاأضيفه إلى أحدٍ مِنْ خلْقك . وكذا أهْلُ الله لا يأكلون إلّا على مائدة الله ، أطعمهم مَـــنْ أطعمهم ، لِعلمهم أنّ غير الله لا يملك معه شيئاً ، فسقط بذلك شهود الخَلْق عن قلوبهـــم ، فـــلم يصـــرفوا لغير الله حبَّهم ، ولا وجَّهوا لِمَنْ سواه وُدَّهم ، إذ رأوا أنّه أطعمهم ومنحهم من فضله .

وقوله : " والشّرع " : لأنّ من استرسل مع إطلاق التوحيد ، ورأى أن الملك لله تعـــالى ، وأنْ لا مُلْـــك لغـــيره معه ، ولم يتقيّد بظواهر الشريعة فقد قُذف في بحر الـــزندقة ، وعادَ حالُه بالوبال عليه ، ولكنّ الشّأنَ أنْ يكون بالحقيقة مؤيّداً وبالشريعة مقيّداً ، فإنّ الانطلاق مع الحقيقة من غير تقييد بالشريعة تعطيل .

* * *

الأمر الثالث : القول بالوحدة المطلقة .

وقـــد بيّن القسطلاني فيما تقدّم نقلُه عنه أنّ هذا القول قال به بعض المتصوّفة

---

(١) كتاب " التنوير " لتاج الدين بن عطاء الله السّكندري .

الذيـــن اشـــتغلوا بعلوم الأوائل [١] وأدخلوها في فنّهم . ومن مذهب الفلاسفة القول بِقِـــدَم العالم وقِدَم الأرواح وإثبات الهَيوُلَى [٢] ، وكل ذلك خارج عن ملّة الإسلام ، نعوذ بالله منه ، وعليه تتفرّع الوحدة المطلقة .

ومِمّـــن ركب له تصوّفاً على مذهب الفلاسفة ابن سينا [٣] ذاك الأعمى القلب والبصيرة .

فجزى الله أئمتنا خيراً الذين حرموا الاشتغال بعلم المنطق والفلسفة حذراً من أنْ يجرّ إلى شيء من عقائدهم الفاسدة ، كما قال ابن الصَّلاح في تعليل ذلك : مدخل الشّرّ شرّ .

والعجـــب مِمّـــنْ أراد الوصول إلى مرتبة الصّالحين وترك سنّة سيد الأنبياء ، والصـــالحين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعمد إلى سنّة قوم كفّار ضُلال ، وبنى قواعده عليها ليصل ، نعمْ وصل ، ولكنْ إلى شفا جرُف هار .

وقد حدّثت عن العلّامة الكريمي أنه حكى أن بعضهم رأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في النوم ، فسأله عن الغزالي والفخر الرازي وابن سينا . فأثنى على الغزالي خيراً كـــثيراً ، وقـــال في الفخـــر : إنـــه معاتـــب . وقال في ابن سينا : إنّه أراد أن يصلَ إلى الله بغير واسطتي فانقطع [٤] .

---

(١) علوم الأوائل : الفلسفة . والأوائل : اليونان والإغريق .

(٢) الهَيُولى : المادّة .

(٣) الحســين بـــن عبد الله بن سينا ، أبو علي (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ) أراد التوفيق بين الفلسفة اليونانيّة الوثنيّة والعقيدة الإسلامية ، فأخفق وندّتْ عنه مآخذ كبيرة ، مما عزي إليه منها القول بالمعاد الروحي فقط .

(٤) لو اقتصر ابن سينا على الطب ، وكان طبيباً نطاسياً بارعاً ، وهو صاحب القانون في الطّب ، لكـــان أسلم له . وقد ردّ عليه وعلى فلاسفة الإغريق ردّاً موفّقاً الإمام حجّة الإسلام الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة .

وإذا تأمَّلْتَ كتب المعتبرين ، كرسالة القشيري وغيرها وكلام الشاذلي ، وكتب الشيخ تاج الدين ، لم تجد فيها لفظة من ذلك . وإنْ وقع في كلامهم لفظ الوحدة فمرادهم به التوحيد وانفراد الله بالوجود ولوازم الوجود ، لا ذلك الذي يريده أولئك .

* * *

الأمر الرابع : الاعتماد على كل خاطر ، سواء وافق الشّرْع أم خالفه ، وربّما كان صاحب هذا الخاطر ممّنْ لم يتقدّم له نظر في الشّرْعيات أصلاً ، لا أصولاً ولا فروعاً ، وربّما انضم إليه أنّه لم تحصلْ له الرياضة التي يَشترِطها أهل القول بالإلهام ، فلا حصل هذا ولا هذا ، ثم أخذ يعتمد على جميع وساوسه وخواطره ويقرّرها ويدوّنها ويعمل عليها ، ويدّعي أنّها التّحقيق ، ويردّ بها القواعد الشرعية والأحاديث النبويّة ، ويزعم أنّ الفقهاء بعيدون عن هذا الذّوْق ، فليت شعري أجاءه من الله جبريل فأخبره أن خاطره معصوم ، وأن الفقهاء كلّهم حُجبوا عن هذا الأمر وإدراك أنّه حقّ ؟

بل هذا خرْق لإجماع كلّ طائفة حتى الصوفيّة ، فإنّهم نصّوا على أنّ الخواطر غير معصومة ، وأنّها لا بدّ مِنْ عرْضها على الكتاب والسّنة ، وأن لا بد من تقدّم الاشتغال بهما .

قال أبو سليمان الداراني : ربّما تقع في قلبي النُّكتة من نُكَت القوم أياماً ، فلا أقبلها إلّا بشاهدين عَدْلين من الكتاب والسّنّة .

وقال أبو حفص الحدّاد : مَنْ لم يزن أفعاله وأحواله في كلّ وقتٍ بالكتاب والسّنّة ولم يتّهم خواطره فلا تعدّه في ديوان الرجال .

وقال الجنيد : الطريقُ مسدود على الخَلْق إلّا على من اقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وسلّم . وقال : مَنْ لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر ، لأنّ علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسّنّة . و قال : مذهبنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الغزالي في الإحياء في باب العُزْلة : المحتاجُ إلى التعلُّم لِمَا هو فرضٌ عليه عــاصٍ بالعزلة ، وإنْ تعلّم الفرض وكان لا يتأتّى منه الخوض في العلوم وراء الاشتغال بالعــبادة فليعتزلْ . وإن كان يقدر على التبرُّز في علوم الشرع والعقل فالعُزْلة في حقه قبل التَّعلم غاية الخُسْران ، ولهذا قال النخعي وغيره : تفقّه ثم اعتزل . ومن اعتزل قبل التعلُّم فهو في الأكثر مضيعٌ أوقاته بنوم أو فكر في هوس ، وغايتُه أنْ يستغرق الأوقات بــأوراد يســتوعبها فلا ينفك عن أنواع من الغرور تُخيِّب سعيه ، وتبطل عمله ، من حيثُ لا يدري ، ولاينفك في اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهّمها ، وعن خواطر فاســدة تعــتريه فــيها ، فيكون في أكثر أحواله ضُحكة للشيطان وهو يرى نفسه في العُبّاد . فالعِلْم هو أَصْلُ الدّين ، فلا خير في عُزْلة العوام والجهّال .

وقــال (الإمام الغزالي أيضاً في إحياء علوم الدّين) في باب الإلهام : زعم قومٌ مِــنْ أهل التّصوّف أن الطّريق في حصول الإلهامات أوّلاً قَطْعُ علائق الدُّنيا بالكلّية ، فيفرغ قلبه عنها ، ويَقْطَعُ همّه عن الأهل والمال والولد ، وعن العمل والولاية والجاه ، ويصير قلبُه إلى حالة يستوي فيها وجود كل ذلك وعدمه ، ثمّ يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصــار على الفرائض والرواتب (١) ، ويجلس فارغ الهمّ مجموع القلب ، ولا يفرّق فكره لقراءة قرآن ، ولا يتأمل في تفسيره ، ولا يكتب حديثاً ولا غيره ، بل يجتهد أنْ لا يخطــر بباله شيء غير ذكر الله تعالى ، ويلزم في الخلوة قول : الله . الله . الله . على الدوام ، مع حضور القلب ، إلى أن ينتهي إلى حالة يتركُ تحريك اللسان ، ويرى كأنّ الكــلمة جارية على اللسان ، ثمّ يصير على ذلك إلى أنْ ينمحي أثرها على اللسان ، فيصــادف قلبه مواظباً على الذّكْر ، ثمّ يواظب إلى أن ينمحي من القلب صورة اللفظ وحــروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرّداً في قلبه ، حاضراً فيه ، كأنّه لازمٌ لايفارقه .

---

(١) الرواتب ، السّنن القَبْلِيّة والبَعْدِيّة .

ولـــه اختيار في استدامته في هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في اســـتجلاب رحمـــة الله ، بل هو بما قد فعله قد تعرّض لنفحات الرحمة ، فلا يبقى إلاّ الانـــتظار لمـــا يفـــتح الله من رحمته ، فعند ذلك إذا صدَقتْ إرادته ، وَصَفَتْ همّته ، وحسنتْ مواظبته ، ولم تجاذبْه شهواته ، ولم يشغله حديثُ النفس بعلائق الدُّنيا ، تلمعُ لوامـــعُ الحـــقّ في قلـــبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثمّ يعود ، وقد يـــتأخر ، وإنْ عـــاد فقد يثبت ، وقد يكون مختلفاً ، وإنْ ثبتَ فقد يطول ثباته ، وقد لايطـــول ، وقـــد يتظاهر أمثاله على التّلاحق ، وقد يقتصر على فنّ واحد . ومنازل أولـــياء الله فيه لا تُحصى ، كما لا يُحْصى تفاوتهم . وقد رجع هذا الطّريق إلى تطهير مَحْض من جانبك ،و تصفية وجلاء ثم استعداد أو انتظار فقط .

وأمّا النُّظار وذوو الاعتبار فلم يُنكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى المقصـــود عـــلى الـــنُّدور ، ولكن استوعروه واستبطؤوا ثمرته ، واستبعدوا اجتماع شروطه ، وقالوا : إنّ مَحْوَ العلائق إلى ذلك كالمتعذّر ، فإنْ حصل في حالة فثباته أبعد مـــنه ، إذا بدأ وسواس وخاطر يشوّش القلب ، قال رسول صلى الله عليه وسلم : " قَلْبُ المؤمن أشدّ تقلباً من القِدْر إذا استجمعت غلياناً " (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم :" قلبُ المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن " (٢).

وفي أثـــناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن ، وإذا لم تـــتقدّم رياضـــة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبتْ بالقلب خيالات فاسدة تطمئنّ الـــنفس إلـــيها مدّة طويلة إلى أنْ تزول ، والعمر ينقضي دون النجاح فيها . فكم مِنْ

---

(١) صـــحيح . رواه أحمـــد في مســـنده ، مســـند المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، عنه ١٧ / ٢٣٧٠٦ والطـــبراني في الكـــبير ٢ / ١٥٣ (٥٩٨ و ٦٠٣) وابـــن أبي عاصـــم في السنة ١ / ١٠٢ (٢٢٦) والحاكم في التفسير ٢ / ٢٨٩ والهيثمي في مجمع الزوائد (الفكر) ٧ / ٤٢٩ (١١٩١٦) والبغدادي في تاريخه ٨ / ٤٠٧ في الإتحاف ٧ / ٣٠٣ .

(٢) مســـلم : القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب ٢٦٥٤ والترمذي في القدر ، باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعي الرحمن ٢١٤١ . وقال فيه : حسن صحيح . وله روايات أخرى .

صوفي سلك هذه الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان هذا قد أتقن العلم من قبل لا نفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال ، فالاشتغال بطريق التعلّم أوثق وأقرب إلى الغرض .

وقالوا إنّ ذلك يُضاهي ما لو ترك الإنسان تَعَلّم الفقه وزعم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلّم ولكنْ صار فقيهاً بالوحي والإلهام ، عن تكرار وتعليق ، وزعم أنّه ربّما انتهى بالرياضة إلى ذلك .

ومن ظَنّ ذلك ظلم نفسه وضيّع عمره ، بل هو كمَنْ تَرَكَ طريق الكسب والحرافة رجاء العثور على كنز من الكنوز ، فإنّ ذلك ممكن ، ولكن بعيدٌ جداً ، فكذلك هذا .

وقالوا : لابدّ أوّلاً من تحصيل ما حصّله العلماء ، فعساه ينكشف بالمجاهدة بعد ذلك .

انتهى كلام الغزالي .

* * *

وقال القطب القسطلاني : في علوم هذه الطائفة مواجيد تَرِدُ عليهم من سوابق أعمال حصلتْ لديهم ، وأحوال ورثوها عن أعمال صححوها ، فلا يرث الأعمال إلّا مَنْ صحح الأحوال . وأوّل ذلك علوم الشريعة المتعيّن عليها ، من علم الفقه وأصول الدّين ، على طريق الكتاب والسّنّة والسّلف الصّلح دون التعمُّق في البحث عن دقيق الشُّبَهِ وغوامضها ، فإذا حصّل من ذلك ما فيه كفاية استعمل ما علم ، وجَدّ في الخدْمة ما استطاع ـــ فأوّل ما يلزمه البحث عن آفات النّفس وعِلَلِها ومعرفة دَخَلِها وخَلَلِها وتهذيب أخلاقها والتّوسُّل إلى سدّ طرق أبواب فتنة الدنيا ومكايد الشيطان ، والاجتهاد والاحتراز منها ، وهو جُلُّ علم الحِكْمة الّذي قال الله تعالى فيه : (ومَنْ يُؤْتَ الحكمة فقد أوتيَ خيراً كثيراً) (١) .

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

فـــإذا تمرّنت النفس على هذه الحالات والوظائف ، ولانت أخلاقُها وطباعُها عـــن القســـوة والفظاظة ، وتطهّر ظاهرها ، وصفا باطنها ، تمكّن السالك حينئذٍ من مراقــبة خواطره وتصفية أسراره ، وهو المعبَّر عنه بعلم المعرفة ، ولسان العبارة يُفصح عنه .

ثم بعـــده عـــلم الخواطـــر والمكاشفات والمشاهدات ، وهو الموصوف بعلم الإشـــارة . وهـــذا العـــلم من خصائص الصوفيّة بعد مشاركتها في العلوم المشهورة المذكورة ، وإنّما قيل لــــه علم الإشارة لأنّه يقصر عنه لسان العبارة ، لأنّه علم ذوق ومـــنازلة ، ومواجـــيد متواصلة ، ولا ينحصر ذلك في عبارة لقائل ، وإنما يجري على اللسان ما هو نفعٌ وتعليم لقائل ، فقد روي مُرْسَلاً من حديث سعيد بن المسيّب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرّة بالله " . ورُوِيَ مُسْنداً من حديث عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه [١] .

وقـــال في موضع آخر : لا غنى بالمتوجّه عن العلم ، فإنْ لم يتّسع وقته له سأل عن أمر دينه ، ولا يستبدّ بما يخطر لـــه في ذلك ، فإنّه يخرج به عن طريق الاستقامة . انتهى .

وقـــال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إذا كنتَ في درجة الخواصّ مـــن القاصـــدين ، وعرض لك في عزلتك الوسواس بما يشبه العلم من طريق الإلهام والكشف ، من حيث التوهّم فلا تقبلْ ، وارجع الحقّ المقطوع من كتاب وسنّة.

واعـــلمْ أنّ الذي عارضك لو كان حقاً في نفسه وأعرضْتَ عنه إلى الحقّ بكتابه وسنّة رســـوله لما عليك عتب في ذلك ، لأنّك تقول : إنّ الله قد ضَمِنَ لي العِصْمة في جانب الكتاب والسنّة ولم يضمنْها لي في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة ، فكيف لو قبلت

---

(١) تقدّم تخريجه في مطلع الكتاب في بحث " الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار " .

ذلـــك من طريق الإلهام لم تقبله إلّا بالعرْض على الكتاب والسّنة ، فإذا لم تقبله إلّا بهما فمـــا بالك تأنس بالوساوس المتوهَمة ؟ فاحفظْ هذا الباب حتى تكون على بصيرة من ربّك ،ويتلو الشاهد ذلك ، والبيّنة لاخطأ معها ولا إشكال . والحمد لله . انتهى .

تـــذنـــيـــب :

وقع من بعض مَنْ يشتغل بكتب التّصوف أنه رأى في كلام بعضهم شيئاً توهّم منه أنّه يقول بإيمان فِرْعون ، فأخذ بظاهره ، وجعل يقول أكثر ما في القضيّة أنّه حَسَّنَ الظّنّ برجل .

فقلتُ له : تُحَسِّنُه برجل شهد القرآن بكفره ؟

فقال : في القرآن ما يدلّ على إيمانه ، وهو قوله : (آمنت) (١) الآية .

قلـــت : هذه حكاية لفظية ، لا شهادة بإيمانه ، والتلفّظ بالإيمان في مثل هذه الحالة لا ينفع ، قال تعالى : ﴿ فلمْ يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسَنا ﴾ (٢) .

فقال : ليس في القرآن تصريح بأنه في النّار .

فقلت : قوله تعالى : ﴿ أدخلوا آل فرْعون أشدّ العذاب ﴾ (٣) .

فقال : ذكر آله ، ولم يذكره .

فقلـــت – مـــع أنّ ما قاله جهل صِرْف – : قوله تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النّار ﴾ (٤) .

فقال : أوردهم النار ورجع عنهم .

فقلت : الله أكبر ، هذه آفة مَنْ ترك ما يعنيه واشتغل بغيره . فلو نظر هؤلاء في تفســير الكتاب العزيز وأحاديث النّبي صلى الله عليه وسلم حتى أشرق في قلوبهم

---

(١) يونس : ٩٠ .

(٢) غافر : ٥٨ .

(٣) غافر : ٤٦ .

(٤) هود : ٩٨ .

العلــوم الشرعيّة والآداب السُّنيّة لعلموا كفر فرعون علماً يقينياً يقضون به بكفر من قال بإيمانه ، لتكذيبه النصوص الواردة في الكتاب والسنّة .

ولم يقصـــد صاحب هذه المقالة ما فهموه عنه ، إنّما ضرب قصّة فرعون مثلاً للــــنفس ، فإن فرْعون لم يرجع عن غلوّه واستكباره بشيء من الآيات والعظات حتى أدركه الغرق ، فاضطره إلى أنْ نطق بكلمة الإيمان ، وأذعن للذّلّ .

وكذلك النفس إذا لم ترجع لشيء من المواعظ والزواجر فعلاجُها أن تغرق في بحر المجاهدة لتؤمن . والله الموفّق .

وبهـــذا تعرف أنّه لا حاجة لمن يأخذ في الشكوك إلى قراءة شيء من الكتب ، إنما ضرورته إلى تعلم السُّنَّةِ والفقه ، ثمّ العمل بما عَلِمَ ، ومجاهدة النفس وتهذيبها . والله المستعان .

* * *

(٣٦)

فصـــــل

أنكــر عـــلى بعــض الصوفيّة أنّه وقع منه أنّ درجة الولاية أفضل من درجة النبوّة . وهذا القول كفر قطعاً . وهذا القول لم يقصد به ما يُفهم من ظاهره ، بل هو مؤوّل بما سنذكره . ومع كونه مؤوّلاً فهو شاذّ مردود لم يقل به إلّا بعضهم ، وهو ردٌّ عليه .

وتأويله ما ذكره الشيخ علاء الدّين القونوي في شرح التعرُّف (١) : أنّ الولاية والنــبوة بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكلّ نبيّ وليّ ، ولا عكس ، فلا ينفكّ النبيّ عن كونه وليّاً أصلاً ، كما أنّ بين النبوّة والرسالة عموماً وخصوصاً مطلقاً ، فلا ينفكّ الرسول عن كونه نبيّاً أصلاً .

قــال صاحب هذه المقالة : إنّ النبي من حيث كونُه وليّاً أفضل ، لأنّ الولاية وجْهَـتُه إلى الحقّ ، والنبوّة وجْهته إلى الخَلْق . ولا يلزم من ذلك ما ظُنّ من المحذور ، لأنّــه إنّما كان يلزم تفضيل الوليّ على النبيّ لو وُجد نبيّ غير وليّ ، وهذا لا يوجد ، كما تقدّم .

فالــنبيُّ فيه الولاية وزيادة النبوّة ، فهو أجلّ مقاماً وأسنى قدْراً ، بل لا مناسبة بين مقامه ومقام غيره البتّة .

ونظــيرُ هذا ما قاله الشّيخ عزّ الدّين بن عبد السلام : مقام النبوّة أفضل من مقـــام الرّسالة ، كما حكاه ابن جماعة في شرح جمع الجوامع عنه ، نظراً إلى أنّ النبوّة مقام العمل ، فهي متعلّقة بالله تعالى ، والرسالة مقام التّبليغ ، فهي متعلّقة بالخَلْق .

---

(١) كـتاب " التعرُّف لمذهب أهل التّصوّف " للكلاباذي البخاري (محمد بن إبراهيم ، متوفى سنة ٣٨٠ هـــ) شرَحه علاء الدّين القونوي (علي بن إسماعيل ، متوفّى سنة ٧٢٩ هـــ) .

ثم إنّــه لا يلزم من هذه المقالة تفضيل النبي على الرسول لأنّه لا يوجد رسول وهــو غير نبي ، حتى يلزم ذلك ، بل الرسول نبي ، وزيادة الرسالة ، فهو أفضل من النبي قطعاً ، لاجتماع المقامين فيه . فافهمْ .

* * *

وقد قال الشيخ أبو العباس المُرْسي في قول أبي يزيد البسطامي : " خضْتُ بحراً وَقَــفَ الأنبياء بساحله " : إنّما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبــياء ، ومــراده أنّ الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ، ووقفوا في الجانب الآخر على ســاحل الغــرق يدعُــون الخَلْــق إلى الخوض . أيْ فلو كنتُ كاملاً لو قفْتُ حيث وقفوا [١] .

قال الشيخ تاج الدّين بن عطاء الله : وهذا الذي فَسَّرَ به الشيخ كلامَ أبي يزيد هــو اللائق بمقام أبي يزيد ، فإنّ المشهور عنه التعظيم لمراسم الشريعة ، والقيام بكمال الأدب ، حتى إنّه حُكي عنه أنّه وُصِفَ رجل بالولاية فأتى إلى زيارته ، فقعد في المسجد ينتظره ، فخرج ذلك الرجلُ وتنخّم في حائط المسجد ، فرجع أبو يزيد ولم يجتمع به ، وقــال : هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله ؟

قــال : وما جاء عن الأكابر أُولي الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يُستَنْكر ظاهرها أوّلناها لهم ، لِما علمنا من استقامتهم وحُسْن طريقتهم ، وقد ورد : ((لا تظنن بكلمة برزت من مسلم سوءاً وأنت تجدُ لها في الخير محملاً [٢]

---

(١) لعلّــه أراد : خضــتُ بحراً من الهفوات والمسالك غير المرضيّة ، وما زلتُ أجاهد نفسي حتى انحسرتْ عني ، والأنبياء – بسبب عصمتهم – لم يقعوا في شيء من ذلك .

(٢) من كلام عمر رضي الله عنه [كنــز العمال ١٦ / ٤٤٣٧٢] .

وقد قال الشيخ أبو العباس : جميع ما أخَذَ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزِقٍ مُلِئ عسلاً ، رشحتْ منه رشحات ، فما في باطن الزّقّ للأنبياء ، وتلك الرّشحات للأولياء .

وقال أيضاً : الأنبياء يُطالعون حقائق الأشياء ، والأولياء يطالعون مثالها ، لا هي ، ولهذا قال حارثة رضي الله عنه لمّا سأله صلى الله عليه وسلّم عن حقيقة إيمانه : " وكأني أنظر إلى أهل الجنّة " [1] ولم يقلْ : نظرت .

وعبارة القونوي في هذه المسألة : لا نعلم خلافاً بين المقرّين بالنبوات في تفضيل الأنبياء ، وما يُعزى إلى بعضهم من تفضيل الوليّ فقد تأوّله هو أو غيره بأنّ كلّ نبي وليّ قطعاً ، وهو من حيث إنّه وليّ أفضل منه من حيث إنّه نبي ، لأنّ ولا يته وجّهته إلى الحقّ ، ونبوّته وجّهته إلى الخَلْق . وفيه مع ذلك ما لا يخفى من الاستبشاع من جهة الإطلاق .

وقال صاحب التعرُّف : وأجمعوا على أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسّلام أفضل من البشر ، وليس في البشر مَنْ يوازي الأنبياء في الفضل لا وليّ ولا غيره ، وإنْ جلّ قدْرُه وعَظُمَ خَطَرُه ، وعلتْ رتبتُه .

قال القونوي : قصدُه في هذا الكلام الردّ على ما يُروى عن طائفة من الضلال أنّ الوليّ أفضل من النبي . وهذا إلحاد وضلال عند أهل التحقيق ، وكفر لا يعتقده إلاكلّ زنديق . ومن ادعاه حُكِمَ عليه بالتّكفير والتّضليل .

قال : نعم ، وقع في كلام بعض المتأخرين أنّ الولاية أفضل من النبوّة . وتأوّله مَن يُحْسن الظنّ فيه [2] بأنّه أراد أنّ النبي فيه صفتان ، وذكر نحو ما تقدّم .

* * *

---

(١) مجمع الزوائد ١ / ٥٧ ، وكنز ٣٦٩٨٩ - ٣٦٩٩١ .

(٢) من القدماء الّذين نُسب إليهم القول بتفضيل الولاية على النبوّة الحكيم الترمذي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ (انظر الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية للدكتور عبد الفتاح بركة (مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٠ هـ) ومن المتأخرين ابن عربي في الفتوحات .

(٣٧)

فصـــــل

ومما أُنكِرَ عليهم ذكرهم أنهم يرون النبي صلى الله عليه وسلم يقظة . وهذا لا إنكـــار فـــيه . وممن نصَّ على إمكانه ووقوعه من أئمة الشَّرع الغزالي واليافعي ، وفي كلام القرطبي إشارة إليه .

وذَكَـــرَ الشيخ أبو الحسن الشّاذليّ أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يَقظةً ، حمَّله السَّلام إلى الشيخ عزّ الدّين بن عبد السَّلام ، وبلّغه ذلك ، ولم يُنكره هو ولا أحد من علماء عصره ، وقد أَلَّفتُ في المسألة تأليفاً فأغنى عن بسط الكلام فيها هنا (١) .

نعـــم يـــتحرّز في ذلك من أهل الدعاوى الكاذبة بالاختبار والامتحان ، وقد ادّعـــى شخص مرّة ذلك ، فاجتمع به أهل الفطنة ، واختبره ، فوجد أمارات البُطلان لائحـــة عليه ، وظُلمة الكذب ظاهرة في وجهه . ثم رأى رجلٌ يُوثق به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا مُبْطِل فليُحْذر . ثم أخمد الله أمره كعادة المُبطلين .

* * *

---

(١) مـــن تصـــانيف الإمـــام السيوطي : " تنوير الحَلَك بإمكان رؤية النبيّ والملك " . انظر أسماء مؤلفات السيوطي لعمر شمّاع .

(٣٨)

فصـــل

وممّـا أنكر عليهم قديماً أمرُ الخضر واجتماعهم به ، وحياته . وممن أنكر ذلك ابن الجوزي ، وقال : إنّه لو كان حيّاً لاجتمع بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولو اجتمع به لورد .

وقـد ردّ الناس على من أنكر ذلك [١] . قال ابن الصّلاح : الخضر حيّ عند جماهير العلماء الصالحين ، وإنّما شَذّ بإنكاره بعض المحدّثين .

وقـال النووي في شرح مسلم : جمهور العلماء أنه حيّ موجود بين أظهرنا . وذلك متّفق عليه عند الصوفيّة وأهل الصلاح والمعرفة . انتهى .

وألّف غير واحدٍ كتباً في ذلك ، آخِرُهم شيخ الإسلام ابن حجر .

وقد ورد في عدّة أحاديث اجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم . وعندي أنّها وإن كانـت ضعيفة فكثرةُ الطُرق والأخبار تقوّيها ، وتعزيتُه للصحابة عند موت النبي صـلى الله علـيه وسلم ، وقولُ عليٍ : هذا الخَضِرُ ، وسكوتُ الصحابة على ذلك : يكاد يكون إجماعاً .

وقصّةُ اجتماعه بعمر بن عبد العزيز إسنادُها صحيح .

والأخبار في شأنه كثيرة ، وقد سقتُها في كتاب " حلية الأولياء " وفي التفسير المأثور .

* * *

---

(١) الراجح أنّ الخضر – عليه السلام – نبيّ كريم ، وأنّه ما يزال حيّاً يستنّ بالإسلام ، ويتبع دين خاتم المرسلين عليه الصّلاة والسّلام .

(٣٩)
فصـــل

وأنكر عليهم بعضُ العلماء ذكرَ الأبدال والنجباء والأوتاد والأقطاب ، قائلاً إنّه لا أصل لذلك في الحديث .

ولـيس كمـا زعمه ، فقد وردتْ الأحاديث والآثار بذلك ، وقد جمعتها في مؤلف [١] ، فأغنى عن ذكرها هنا .

* * *

(٤٠)
فصـــل

قـال القونـوي : قـد يقع في كلام بعض العارفين ما يُوهم الجبر مِنْ نفْيهم الاختـيار والغفلة عن أنفسهم ، ومرادهم عدم الملاحظة لذلك ، لاستغراقهم في النّظر إلى ما منه تعالى ، لا إلى ما منهم .

* * *

---

(١) سمّاه " الخبر الدالّ " .

(٤١)

فـــصـــــل

ومما أنكر عليهم قولهم في الروح ، فاعلم أنّ في ذلك ثلاث فرق :

فــالأولى – وهي الفِرْقة المرتضاة – الوقوف عن الخوض فيها تأدُّباً مع الله . وهــذه طريقة الجنيد . قال الجنيد : الروحُ شيء استأثر الله بعلمه ولم يُطْلع عليه أحداً من خلقه ، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، لقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربّي ﴾ (١) .

وقــال الســـهروردي بعد ذكْره أنّ الناس تكلّموا في الروح : وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدّب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما قاله الجنيد ، ثم قــال : ويجــوز أنْ يكون كلامهم في ذلك بمتابعة التأويل لكلام الله ، حيث حرم تفسيره وجوّز تأويله ، والتأويل ذِكْرُ المحتمل من غير القطع بذلك . وهؤلاء هم الفِرْقة الثانية . وقد أطبقوا على القول بأنها حادثة .

وشذّت فِرقة ثالثة غلاة فذهبتْ إلى القول بقِدَمِها ، وهذه نَزْعةٌ فلسفيّة نعوذ بالله منها .

وحسّـــن بعضهم العبارة فقال : الروح موجود عظيم لا يوصف بأنه مُحدث ولا قديم . وزعم أنّ الروح الجزئيّة أشعّة ورقائق من ذلك الروح الأعظم . وهذا أيضاً فاسد .

قـــال القونوي : وأكثر ما وقع ذلك في عبارة المتأخّرين ، والحقّ أنّ القديم هو الله تعالى وصفاته ، وكلّ ما سواه من الأرواح والأجسام حادث . انتهى .

قلـــتُ : أتقن هذا الفصل وأحكمه جيداً واعتقد حدوث الرّوح ، وكرّره في ذهنك حتى يختلط بلحمك ودمك ، وإيّاك أنْ تغتر وتقبل قول مَنْ حرّف فإن أكثر ما وقع الزَّلَلُ للمتأخرين وغيرهم مِنْ هنا . والله الموفّق .

---

(١) الإسراء ٨٥ .

(٤٢)
فصــــل

وأمّا السّماع ، فإنْ كان بغير آلة فمذهبنا أنّه ليس بحرام ، فلا إنكار فيه ، وقد كان يحضره الأئمّة من كلّ مذهب في كل عصر . روى الحافظ محمد بن طاهر المقدسي بسنده عن مصعب بن الزبير قال : حضرتُ مجلس مالك بن أنس ، فسأله أبو مصعب عــن السماع ، فقال مالك : أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولايُنكره إلا غبيّ جاهل أو ناسك عراقي غليظ الطّبع (١) .

وروى أيضاً بسنده عن صالح بن أحمد بن حنبل أنّه كان يحبّ السّماع ، وأنّه أحضر رجلاً يغنيّه فسمعه أبوه .

وقال ابن طاهر أيضاً : أخبرنا أبو محمد التّميمي قال : سألتُ الشريف أبا عليّ محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشميّ عن السّماع فقال: ما أدري ما أقول فيه ، إلا أني حضــرْتُ في دار شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي شيخ الحنابلة سنة سبعين وثلاثمئة في دعوة عملها لأصحابه حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكين ، وأبو القاســم الــداري شــيخ الشــافعيّين ، وأبو الحسن طاهر بن الحسين شيخ أصحاب

---

(١) أخــرج عبد الرحمن بن الجوزي بسنده " عن إسحاق بن عيسى الطبّاع قال : سألتُ مالك بن أنــس عمّــا يترخّص فيه أهل المدينة من الغناء ، فقال : إنّما يفعله الفُسّاق . أخبرنا هبة الله بن أحمــد الحريري قال : أنبأنا أبو الطيّب الطبري قال : أما مالك بن أنس فإنّه نهى عن الغناء وعن اســتماعه ، وقــال : إذا اشــترى (رجل) جاريّة فوجدها مغنيّة كان له ردها بالعيب ، وهو مذهــب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد " [تلبيس إبليس (الطباعة المنيرية) ٢٢٢] . ومــن الضــروريّ لدى البحث في مسألة الغناء أن نميز ما كان منه بآلة أو من دون آلة ، وأنْ نــنظر في موضــوعه أمباح أم مُستَهجَن ؟ وفي مؤدّيه : أهو رجل بين يدي رجال ، أم قَيْنة . . انظر إن شئت : إحياء علوم الدّين ٢ / ٢٦٦ ونهاية الأرب للنويري ٤ / ١٥٦ وتلبيس إبليس ٢١٥ ومــا بعدهــا ، ورسالة " حكم الإسلام في الغناء " للشيخ محمّد الحامد ، وكتابي " شعر الفقهاء حتى نهاية العصر العباسي الأول " ١٨٥ وما بعدها .

الحديث ، وأبو الحسين بن سمعون شيخ الوُعاظ والزّهّاد ، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكــلمين ، وصاحبه أبو بكر الباقلّاني ، حتى قال بعض الحاضرين : لو سقط سقفٌ علـيهم لم يـبقَ في العـراق مَنْ يُفتي في حادثة بسنّة ، كان رجل حاضر يقرأ بصوت حسن ، فقالوا له : قل شيئاً . فقال وهم يسمعون :

خَطّــتْ أنامـلها في بطــن قِرْطاسِ ... رســالةً بعَــبيرٍ أنفـــاس
فكــانَ قــولي لِمَــنْ أدّى رسالتَها ... قفي لأمشيْ على العينَين والرّاس

قــال ابن طاهر : وآخرُ مَنْ كان يُبيح استماعه من الأئمة المقتَدى بهم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ، وكان في ورعه وزهده وتقشّفه بالمحلّ الذي لا يخفى . انتهى .

وقــال البيهقي في شعب الإيمان : قرأت على أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السّـلمي قال : سألت الإمام أبا سهل محمد بن سليمان عن السّماع فقال : يُستَحبّ ذلــك لأهــل الحقائق ، ويباح ذلك لأهل الورع ، ويكره ذلك للفُسّاق ومنْ يسمعه تطرُّباً .

وقــال القونوي في شرح التعرُّف : قد حضّره من المتأخرين عزّ الدين بن عبد السّلام والشيخ تقيّ الدّين بن دقيق العبد وغيرهما من العلماء الأعلام أئمة الإسلام .

وذكــر الإســنوي في الطبقات أن الشيخ تاج الدين بن الفركاح كان يحبّ السّماع ويحضره .

وممن استحسنه أيضاً القطب القَسْطلاني .

وذكر الماوريّ في " الحاوي " أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كان يستكثر من سماع الغناء ، ويشتري الجواري لذلك .

إذا تقرّر ذلك فهاهنا أمور لا بدّ منها :

الأوّل : أنّــه لا يلزم مما ذكرناه أن ذلك حالُ كَمال ، فقد قال الجنيد : إذا رأيت المريد يطلب السّماع فاعلم أنّ فيه بقيّة من البطالة .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذليّ رضي الله عنه ليس من طريقه السّماع .

الثاني : قال القونوي : محلّ ما ذكرناه من الترخُّص في أمر السّماع ما لم يستكثر منه . فأمّا من اتّخذه دَيْدَنه وهجّيراه [(١)] ، وقصَر عليه أكثر أوقاته فمذموم . نصّ عليه الغزالي . وذلك لأنّه إنّما فسح فيه لترويح القلب ، وربّما يصير المباح عبادة مَحْضة بالنيّة إذا نوى اجتمام [(٢)] النفس ؛ قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنّي لأستجمّ نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً على الحقّ .

قال صاحب العوارف : ولموضع الترويح كرهت الصّلاة في أوقات لتستريح عمّال الله ، وترتفق [(٣)] النفوس ببعض مآربها من تَرْك العمل [(٤)] .

وفي كلام سهل بن عبد الله : الصّادق يكونُ جهلُه مزيداً لعلمه ، وباطله مزيداً لحقّه ، ودنياه مزيداً لآخرته ، ولهذا المعنى حُبّب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النساءُ ، ليكون حظّ نفسه الشريفة ، الموهوب لها حقوقها لموضع طهارتها .

الثالث : قال صاحب العوارف : قد كثرت الفتنة في السّماع ، وزالت العصمة فيه ، وتصدّى للحرص عليه أقوام قلّتْ أعمالهم ، وفسدت أحوالهم ، وأكثروا الاجتماع للسّماع فصار السّماع معلولاً تركَنْ إليه النفوس طلباً للشهوات ،

---

(١) ديدن : عادة ودأب ، ومثلها هِجّيرى .

(٢) اجتمام : راحة .

(٣) ترتفق به : تنتفع به ، تستعين .

(٤) وقال أحمد شاه الدهلوي : " لمّا كانت فائدة الصلاة ، وهي الخوضُ في لُجّة الشّهود ، والانسلاكُ في سلك الملائكة ، لا تحصل إلّا بمداومة عليها وملازمة بها ، وإكثار منها حتى تُطرح عنهم أثقالهم ، ولا يمكن أن يُؤمروا بما يفضي إلى ترك الارتفاقات الضروريّة ، والانسلاخ عن أحكام الطبيعة الكلّيّة ، أوجبت الحكمة الإلهية أنْ يؤمروا بالمحافظة عليها والتّعهد لها بعد كلّ بُرْهة من الزمان ، ليكون انتظارهم للصلاة وتهيُّؤهم لها قبل أن يفعلوها ، وبقيّةُ لونها وصُبابة نورها بعد أن يفعلوها ، في حكم الصلاة ، وتكون أوقات الغفلة مضمونة بطمح بصر إلى ذكر الله ، وتعلُّق خاطرٍ بطاعة الله " [أحمد شاه وليّ الله الدهلوي : حجّة الله البالغة (دار الكتب الحديثة بالقاهرة بتحقيق سيد سابق) ٣٩٧] صُبابة : بقيّة .

واستحلاءً لمواطن اللهو والغفلات ، وينقطع بذلك على المُريد طلب المزيد ، ويكون طريقه به تضييع الأوقات وقلّة الحظّ من العبادات . فلا يخفى أنّ هذا الاجتماع مردود عند أهل الصّدْق ، ولا سيما إذا انضمّ إلى ذلك المراءاة والتودُّد إلى بعض الحاضرين ، وغير ذلك من الأمور التي لا يعتمدها من المتصوّفة إلّا مَنْ ليس له من التّصوّف إلّا مجرّد زيٍّ وصورة ، بأنْ يكون القوّال أمرد تنجذب النفوس إليه ، أو يكون للنساء إشراف على الجمع ، وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى ، فيكون ذلك عَيْن الفسق المجمع على تحريمه ، وأهل المعاصي أحسن حالاً ممّن هذا حاله ، لأنّهم يرون فسقهم ، وهذا لا يراه ، ويُريه عبادة لمن لا يعلم ذلك .

الرابع : وقال صاحب العوارف : كان يُقال : لا يصلح السّماع إلّا لعارف مكين ، ولا يصلح لمريد مبتدئ .

وقال القونوي : قد كرهه المشايخ للمريدين في مبادئ إرادهم قبل أن تتمرَّن نفوسهم بصدق المجاهدات .

قال بعضهم : لا يصلح السّماع إلّا لمن كانتْ له نفس ميتة وقلب حي ، فنفسه ذُبحتْ بسيوف المجاهدة ، وقلبه حيٌّ بنور الموافقة والمشاهدة .

الخامس : قال صاحب العوارف : كانوا لا يسمعون إلّا من أهل مع أهل ، فلمّا فقدوا الإخوان تركوه .

وقيل : إنّ الجنيد ترك السماع ، فقيل له : لِمَ لا تسمع ؟ قال : مَعَ مَنْ ؟ قيل له : أنت تسمع لنفسك . قال : ممّن ؟

السادس : قال أبو نصر السّراج في كتاب اللمع في التصوّف : لا يصلح السماع لمريد حتى يعرف أسماء الله وصفاته ، ليضيف إلى الله ما هو أولى به ، ولا يكون قلبه ملوثاً بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولا يكون في قلبه طمع للمخلوقين ، ويكون مراعياً لقلبه حافظاً لحدوده متعاهداً لوقته .

السابع : قال صاحب العوارف : إنْ أنصف المنصفُ وتفكّر في اجتماع أهل الزمان وقعود المغنّي بدفه والمشبِّب بشبابته [1] ، وتصوّر في نفسه ، هل وقع مثل هذه الجلسة والهيئة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل استحضروا قوّالاً وقعدوا مجتمعين لسماعه ؟ فلا شكّ أنّه يُنكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولو كان ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها .

قال : فمن يشير بأنّه فضيلة تُطلب ويُجتمع لها ، لم يحْظَ بذوق معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، ويستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك .

قال : وكثيراً ما يغلط الناس في هذا كلّما احتجّ عليهم بالسلف الماضين احتجّوا بالمتأخرين ، وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديهم أقرب إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى .

* * *

وقد وقفتُ على فصل في أحكام السماع للشيخ عزّ الدّين بن عبد السلام قال فيه ما نصّه :

السّماع يختلف باختلاف السّامعين والمسموع منهم ، وهم أقسام :

(أحدها) : العارفون بالله . ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم ، فمَنْ غلَبَ عليه الخوف أثّر فيه السّماع عند ذكر المخوفات ، وظهرتْ آثاره عليه من الحزن والبكاء وتغيّر اللّون والخوف على أقسام :

أحدها : خوف العقاب .

والثاني : خوف فوات الثواب .

---

(١) الشّبابة : نوع من المزامير .

والثالث : خوف فوات الحظّ من الأُنس والقُرْب بالملك الوَهّاب . وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين . فمثل هذا لا يتصنّع في السّماع ولا يصدر عنه إلّا ما غلب عليه من آثار الخوف ، لأنّ الخوف وازع عن التصنّع والرّياء ، وهذا إذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من النشيد والغناء .

(الثاني) : من غلب عليه الرجاء ، فهذا يؤثّر فيه السّماع عند ذكر المطمِعات والمرْجيات ، فإنْ كان رجاؤه الأُنس والقُرب كان سماعه أفضل ، سماع الأراجيز ، وإن كان رجاؤه للثواب كان في المرتبة الثانية . وتأثير السّماع في الأوّل أشدّ من تأثيره في الثاني .

(الثالث) : من غلب عليه الحبّ . وهو قسمان .

أحدهما : من أحبَّ الله لإنعامه عليه وإحسانه إليه ، فهذا يؤثر فيه سماع الإنعام والإفضال والإحسان والإكرام .

الثاني : من غلب عليه حبّ الله لشرف ذاته وكمال صفاته . فهذا يؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات ، ويشتدّ تأثيره عند ذكر الإقصاء والإبعاد ، وهو أفضل من الذي قَبله ، لأنّ سببه أفضل الأسباب .

(الرابع) : مَنْ غلب عليه التّعظيم والإجلال ، فهذا أفضل من الأقسام الثلاثة ، إذْ لاحظَ في سماعه لنفسه ، فإنّ النفس تتضاءل وتتصاغر للتعظيم والإجلال ، فلاحظٌ لنفسه في هذا السّماع ، بخلاف مَنْ تَقَدَّم ذِكْرُه في الأقسام ، فإنهم واقفون مع ربّهم من وجه ، ومع أنفسهم من وجه أو وجوه ، وشتّان بين ما هو خالص لله ، وبين ما شاركته فيه النفوس ، فإنّ المحب يلتذّ بجمال محبوبه ، وهو حظٌّ نفسه ، والهائب ليس كذلك .

وتختلف أحوال هؤلاء بالمسموع منه ، فالسّماعُ من الأولياء أكثر تأثيراً من السّماع من الجهلة الأغبياء ، والسّماع من الأنبياء أشدّ تأثيراً من السّماع من الأولياء ، والسّماع من ربّ الأرض والسّماء أشدّ تأثيراً من السّماع من الأنبياء ، لأنّ

كلام الرّبّ أشدّ تأثيراً في الهائب ، من كلام غيره ، كما أنّ تأثير المحبوب أشدّ تأثيراً في المحبّ من كلام غيره . ولهذا لم يشتغل الأنبياء والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهي والغناء ، واقتصروا على سماع كلام ربّهم ، لشدّة تأثيره في أحوالهم .

ولقد غلط كثير من النّاس في سماع النشيد والغناء ، من جهة أنّ أصوات الملاهي وطيب النشيد وطيب الغناء فيهاحظّ للنفوس ، فإذا سمع أحدهم شيئاً مما حرّك حاله التذّت نفسه بأصوات الملاهي ونغمات العناء ، وذكّره النشيد بما يقضيه حاله من الحبّ والخوف والرجاء ، فتثور فيه تلك الأحوال فتلتذّ النفس منْ وجه مؤثّره ، ويؤثر السماع بما يشتمل عليه الغناء من الحبّ والخوف فيحصل له الأمران : لذّة نفسه والتعلّق بأوصاف ربّه . فيظنّ أنّ الكلّ متعلق بالله ، وهو غالط .

(القسم الخامس) : مَنْ يغلب عليه هوىً مُباح ، كمن يعشقُ زوجته أو سُرِيّته [1] ، فهذا يهيجه السّماع ، ويؤثر فيه الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق ، فيطرب لذلك فسماع مثل هذا لا بأس به .

(السادس) : مَنْ يغلب عليه هوىً محرّمٌ كهوى المُرْد ، ومن لا يحل له من النساء ، فهذا يُهيجه السّماع إلى السّعي في الحرام ، وما أدّى إلى الحرام حرام .

(القسم السابع) : من قال : لا أجد في نفسي شيئاً مما ذكرتموه في الأقسام الستّة ، فما حكم السّماع في حقّي ؟

قلنا : هو مكروه من جهة أن الغالب على العامّة إنّما هي الأهواء الفاسدة ، فربّما هاجه السّماع إلى صورة محرمة ، فيتعلّق بها ويميل إليها ، ولا يحرم عليه ذلك ، لأنا لا نتحقّق السبب المحرم ، وقد يحضر السّماع قومٌ من الفجَرة فيكون

---

(١) سُرّيته : أمَته .

وينـــزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها ، ويراؤون الحاضرين بأنّ سماعهم للأسباب المذكورة في الأقسام الستّة . وهذا قد جمع بين المعصية وبين إيهام كونه من الأولياء .

وقـــد يحضـــر السماع قومٌ قد فقدوا أهاليهم ، ومن يعزّ عليهم ، ويذكّرهم النشـــيد فراق الأحبّة وعدم الأنس بهم ، فيبكي أحدهم ، ويوهم الحاضرين أنّ بكاءه لأجل ربّ العالمين . وهذا مُراء بأمر غير محرَّم .

* * *

(٤٣)

فصــــل

لا يحصـــل الســـماع المحمود إلّا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السَّنِيّة ، والأفعال المُرضيَة . ولكلّ صفة من الصفات حال يختصّ بها ، فمَنْ ذكر صفة الرحمة ، أو ذُكّـــر بهـــا ، كانتْ حالُه حالَ الراجين ، وسماعه سماع الراجين ، ومَنْ ذكر شدّة الـــنقمة ، أو ذكّر بها ، كانت حاله حال الخائفين ، وسماعه سماع الخائفين ، ومن كان حاله المحبّة فذكر جمال المحبوب ، أو ذكّر به ، كانت حاله حال المحبّين ، وسماعه سماع المحبّين .

ومـــنْ كانتْ حاله حال المعظمين الهائبين فذَكَرَ العظمة ، أو ذكّر بها ، كانت حاله حال المعظمين ، وسماعه سماع الهائبين المعظّمين .

ومَنْ كان حالُه التوكُّل فذكر تفرُّدَ الرّبّ بالضرّ والنفع ، والخفض والرفع ، والتقريـــب والإبعـــاد ، فذكـــر ذلك ، أو ذُكِرَ له في السّماع ، كان (١) حاله حال المتوكّلين المفوضين ، وسماعه سماعهم .

وقد ينتقل كثير من النّاس في السّماع بين هذه الأحوال ، فينتقل من حال إلى حال على حسب اختلاف التذكير .

وقـــد يغلـــب الحال على بعضهم ، بحيث لا يُصغي إلى ما يقوله المنشد ، ولا يلتفت إليه لغلبة حاله الأولى عليه

• • •

(١) لم يلحق تاء التأنيث بـــ " كان " ومن قبل ألحق بها ، لأن كلمة " حال " تذكّر وتؤنث .

وقـــال صـــاحب كتاب معيار المريدين [1] : أمّا بعد ، فهذا ذِكْر الفِرق التي غلطت في الإباحة والحلول والاتّحاد والتّجسم وبيان عُوارهم [2] والرّدّ عليهم :

اعــــلمْ أنّ منشأ أغاليطهم جهلهم بأصول الدّين وفروعه ، حيث تركوا العلم ومتابعته ، واتّبعوا شهوات النفوس ، قال الله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [3] .

وقـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتدوا باللذينِ من بعدي أبي بكر وعمر " [4] .

وقـــال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : " أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم " [5]

---

(١) معيار المريدين للشيخ قطب الدين عبد الله بن محمد النوري الأصفهندي .

(٢) عُوار : عيب .

(٣) النحل ٤٣ .

(٤) مســـند أحمد ٢٣١٣٨ والترمذي : المناقب ، الباب ٣٢ [في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما]رقم ٣٦٦٣ . كلاهما عن حذيفة رضي الله عنه . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٥) إسـناده ضـعيف ، وهو في كشف الخفاء (التراث الإسلامي) ١ / ١٤٧ برقم ٣٨١ وقال العجلوني : رواه البيهقي ، وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ : " أصحابي بمنـــزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم " وميزان الاعتدال ١٥١١ و ٢٢٩٩ ولسان الميزان ٢ / ٤٨٨ و ٥٩٤ وتلخيص الحبير (لابن حجر) ٤ / ١٩٠ والكاف الشاف ، له ، ٩٤ . وجامع العلم لابـــن عبد البرّ ٢ / ٩١ . وفي الجامع الصغير (رقم ٤٦٠٣) " يا محمد ، إن أصحابك عندي بمنـــزلة النجوم في السّماء ، بعضها أضوأ من بعض ، فمن أخذ بشيء مما هم عليه من أخلاقهم فهـــو عـــندي عـــلى هدى " قال السيوطي : ضعيف . وعزاه إلى السجزي في الإبانة ، وابن عســـاكر ، عن عمر رضي الله عنه ، وفي صحيح مسلم : فضائل الصحابة ، باب بيان أن بقاء الـــنبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه (رقم ٢٥٣١) : " . . وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي . . " أمَنَة : جمع أمين . انظر جامع الأصول (ط ٢) ٨ / ٥٥٦ .

اعلمْ أنّ من ليس معه سراج العلم ومشعلة العلم فلا تَشكّنَّ في إغواء الشيطان اللعين إيّاه . وقد حذّر الله تعالى عبادَه من موالاة الشّيطان في كثير من الآيات ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً ﴾ [فاطر : ٦] .

فيجب على طالب العلم اتّباع الحقّ الذي يصحّ به الإيمان واعتقاده وتوحيده وعلمه ، حتى يكون عارفاً بالله تعالى ، وعاملاً في الله ، ومخلصاً لله .

والعلم النافع المُنجي هو علم الشريعة والطريقة ، قال صلى الله عليه وسلم : " العلم علمان ، علم باللسان ، فذلك حجّةُ الله على العباد ، وعلم في القلب ، فذلك هو النافع " (١) .

قال صلى الله عليه وسلم : " خير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشرُّ الدنيا والآخرة مع الجهل " (٢) .

وقال في كتاب الفردوس : روى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " ربّ عابد جاهل ، وربّ عالم فاجر ، فاحذروا الجهّال من العُبّاد ، والفجّار من العلماء " (٣) .

---

(١) تقدّم تخريجه في مطلع الكتاب " الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار " عن الترغيب والترهيب ١٤٠ ومسند الفردوس ٤١٩٤ . .

(٢) في إحياء علوم الدين : " . . يا أم حبيبة ذهب حسن الخُلق بخيري الدنيا والآخرة " إحياء ٣ / ٥١ وسنده ضعيف ، أخرجه البزّار والطبراني والخرائطي ، كما في المغني للعراقي .

(٣) ضعيف ، رواه ابن عساكر في تاريخه ٣ / ٢٣٠ وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٢ / ٤٤٦ و ٦ / ٢٤٣٣ والألباني في السلسلة الضعيفة ٤٩٤ . والديلمي في مسند الفردوس [كنز ٢٤٨٤٧] .

وقال علي رضي الله عنه : ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان : عالم فاجر وناسك مبتدع ، فالعالم الفاجر يَزهد الناسُ في علمه ، لما يَرون من فجوره ، والناسك المبتدع يرغب الناس في بدْعته لما يرون من نُسكه .

وعن الشعبيّ رحمه الله أنه قال : اتقوا الفاجر من العلماء ، والجاهل من المتعبّدين ، فإنهما آفة كل مفتون .

وقال صلى الله عليه وسلم : " هلاك أمتي عامل فاجر وعابد جاهل ، وشرّ الشرّار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء " (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " يكون في آخر الزمان عباد جُهّال وعلماء فسّاق " (٢) .

قال صاحب العوارف : قوله : " عباد جهال " أراد أصحاب الرستاق (٣) ، فغالباً يحصل لهم أقل ضوء في الباطن ، بسبب سلامة النفس وترك الفضول وكثرةِ الكلام ، ولا يكون لهم سابقةُ علم ، ولا يطيعون أمر شيخ ربّاني ، عالم صمداني ، فمثالهم كشجرة الدّقْلة (٤) غير المثمرة مع الأزهار ، لانتشائها بنفسها ، ولم يصل إليها

(١) أورد العجلوني صدره " هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل " وأتبعه بقوله : قال في المختصر : لم يوجد [كشف الخفاء ٢ / ٤٦٠ برقم ٢٨٨٣ ، ورواه بتمامه الغزالي في الإحياء ١ / ٦٣ ، وقال زين الدين : أخرج آخره الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مُرْسلاً . . ولم أجد صدر الحديث . وانظر كنز العمال ١٠ / ٢٩٠٠٦ .

(٢) ضعيف . وهو في المستدرك ٤ / ٣١٥ وكنز ٣٨٤٨١ وإحياء ١ / ٥٨ وميزان ٩٨٧٧ وتذكرة ٢٤ والسلسلة الضعيفة ٤٤٧ والمجروحين (لابن حبّان) ٣ / ١٣٥ .

(٣) أصحابَ الرستاق : أهل القرى .

(٤) الدقل : أردأ النخل .

ضـــروب التربـــية ، فإنها الأصل في العبوديّة حتّى لا يغترّ بحاله ، ولا يعجب بنفسه ، ويكـــون مثال عبادتهم مع الجهل كالبنيان على الرَّماد ، ولا يكمل حالهم أصلاً ، ولا يكـــون لهـــم علم الولاية أبداً ، لأنّه ليس مبنياً على قانون الشريعة وآداب الطّريقة ، فيغلـــب علـــيهم وســـاوس الشيطان وهواجس النفس ، فيدلّهم على التلبُّس وترك الأسباب واكتساء الخُلْقان [1] ، وإظهار الأشكال الغريبة والأفعال العجيبة ، والإقامة في المواضع المنكرة مع السُّكوت ، ليغترّ النّاس بها ، فتُفْضي بهم هذه الأحوال والأفعال والأشكال إلى اصطياد النّاس والصّيت بينهم بطريق الرياء والسُّمعة استجلاباً للرزّق .

فهم الدّجّالون الشّاذّون لهذه الأمة اختاروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية .

وقـــال صاحب العوارف : لا شكّ أنّ النفس مجبولة على الباطل ومنتفرة عن الحقّ ، والدليل على ذلك حكاية نوح عليه السّلام ، ودعوته النّاس تسعمائة وخمسين سنة ، فلم يتبعه إلا تسعون نفساً ، والسّامريّ كان كافراً وعالماً بالسحر ، فعمل بيده عجلاً من الحليّ ، ونفخ فيه صوت رعد ، فدعا الناس إليه ، وقال : (هذا إلهكم وإله موسى) [2] فقَبِلَ منه سبعون ألفاً واتّبعوه .

فعُـــلم من هذا البيان أنّ أصل العِرْفان لا يظهر إلا لمن له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد ، حتى يرى الحقّ بالحق والباطل بالباطل .

وقال صاحب العوارف : ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " ما اتخذ الله وليّاً

---

(١) الخُلْقان : الثياب البالية المهترئة .

(٢) طه : ٨٨ .

جاهلاً " (١) .

قال : فإنْ قيل : رأينا مَنْ لا يكون لـــه علم الصورة واصلاً إلى حقيقة العلم .

قلنا : مسلّم له ، وهو نادر ، ولا حُكم للنادر .

فـــإن تبـــيّن ذلك فلا بد من لوازمه ، أنْ يوفّقه الله بالعبوديّة على وفق أساس الشريعة ، لأنّ الجهل نتيجةُ النفسُ الأمّارّة بالسُّوء ، ومِنْ لوازم أصحاب الولاية النفس المطمئـــنّة ، ومن شرائط أهل الولاية أنْ يكون عالماً بالأوامر الشرْعيّة ، وسالكاً فيها ، وكاملاً في عرفان الحقيقة ، وواصلاً إليها ، ومحصّلاً لجميع ذلك ، حتى يتمّ له السلوك ويشرف بعالم الوصال .

فالله الله أيّها الطالب ، الحذَرَ الحذَرَ من صحبة الأشرار ، فإنهم قُطّاع طريق .

واعتصموا بحبل القرآن والأحاديث النبويّة .

وقال سهل بن عبد الله التُّستري رحمه الله تعالى : اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس : الجبابرة الغافلون ، والقُرّاء المداهنون ، والمتصوّفة الجاهلون .

فافهم ولا تغلطْ . فالدين واضح .

* * *

---

(١) قـــال محمـــد بن السيد درويش : لم يعرف في المرفوع كما في الأصل [أسنى المطالب (ط . الحلـــبي ١٨٣ . وقال إسماعيل العجلوني : قال في المقاصد لم أقفْ عليه مرفوعاً . وقال الحافظ ابـــن حجـــر : ليس بثابت ، ولكن معناه صحيح [كشف الخفاء ٢ / ٢٥٣ برقم ٢١٨٥] ولفظه فيه : " ما اتخذ الله من ولي جاهل ، ولو اتخذه لعلّمه " . وهو في تذكرة الموضوعات ٢٧ والأسرار المرفوعة ٣٠٢ .

باب في الاتّحاد ، والدليل على بُطلانه

اعلمْ أنّه قد وقع في عبارة بعض المحقّقين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد ، فإنّ الاتحاد عندهم هو الغلو في التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد الأحد ، فاشتبه ذلك على مَنْ لا يفهم إشاراتهم فحملوه على غير محمله ، فغلطوا وهلكوا بذلك .

* * *

(٤٤)

فصـــــل

الدلـــيل على بطلان اتّحاد العبد مع الله تعالى أنّ الاتحادَ بين مربوبيْنِ مُحال ، فإنّ رجلين مثلاً لا يصير أحدهما عين الآخر لتبايُنهما في ذاهما كما هو معلوم ، فالتباين بين العبد والرّبّ تعالى أعظم .

فإذاً أصل الاتّحاد باطل .

وحيث يُطلق الاتّحاد ويقال هو هو لا يراد ما هو محال في نفس الأمر ، وإنّما يكون بطريق التّوسّع والمجاز ، كقول الشاعر :

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا . . . .

فالشاعر لا يعني أنّه هو تحقيقاً بل كأنّه هو (١) .

والعـــبد الموحِّد إذا عرف الحقّ الواحد وانتفت عنه الكثرة ، فهذا المقام سمّي بلسان المجاز اتّحاداً ، وبلسان الحقيقة توحيداً .

بـــيان ذلـــك أنّ المؤمنَ معه نورٌ هو سرّ الله تعالى يصاحب العبد ، به يطلب (العبدُ) الله تعالى ، ويذكره ، وبه يريده ويعرفه ، وبه يوحّده ويحبّه و يشاهده ، ولولا ذلـــك النور من الله تعالى معه لا طلبه ولا أراده ولا ذكَره ، ولا عرفه ولا أحبه ، كما قيل : لا يحمل عطاياه ولا مطاياه .

فمَـــنْ رفع الله تعالى الحجاب عنه ، وأشرق على قلبه النّورُ الرّبّانيّ ، واستنار بالنور ، وخرج من ظلمة وجوده صار الحكم للغالب ، ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ (٢) فعـــند ذلـــك تعـــدم آثار بشريته لغلبة ما تأثّر به من النور الرّبّانيّ ، فيكون كما قال الشاعر :

---

(١) عُـــزيَ إلى الحســـين بـــن منصور الحلّاج قائلاً أو منشداً ، وكان من أسباب مصرعه بسيف الشريعة ، بإجماع فقهاء بغداد سنة ٣٠٩ هـــ ، وتمامه :

. . . .   نحن روحان حللْنا بدَنا

(٢) يوسف : ٢١ .

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا

ومن هذا الموضع قامت الدعوى وما تكلّمت به الرجال والمحقّقون من الاتّحاد والسُّبْحانيّة (١) لم يريدوا بذلك ظهوراً على العالم ، وافتخاراً عليهم ، وإنّما أرادوا مَحْوَ أنفسهم وإثبات الحقّ سبحانه .

* * *

وأيضاً في هذا المقام ربما يجري على لسان بعضهم : هو الطالب والمطلوب ، وهو الذاكر والمذكور ، وهو المحبّ والمحبوب ، وهو الشاهد والمشهود ، إضافة إلى السّرّ الذي يصاحبه من الله تعالى . فعند ذلك يظنّ المحجوب الجاهل بسنّة الله تعالى أنّه اتّحاد حقيقة ، وشبّهوا ذلك بضوء السّراج والكواكب مع نور الشمس ، وغلطوا في ذلك ، فإنّ ضوء السّراج له وجود في نفسه ما اتحد بنور الشمس بل استتر عنه ، غلبه نورُ الشمس ، ولو كان هذا اتّحاداً لكان ينبغي إذا غربت الشمس أن يغرب معها ضوء السّراج والكوكب ، وليس كذلك ، بل اتّحاد العبد مع الرّبّ تعالى ، وحلوله فيه محالٌ باطل بإجماع المسلمين : الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفيّة وسائر العلماء . وليس هذا مذهب الصوفيّة ، وإنّما هذا مذهب الطائفة الحلولية ، قالوا هذا اتّحاد العبد مع الله تعالى ، لقلة علمهم وسوء حظّهم من الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ يريد الله أنْ لا يجعل لهم حظّاً في الآخرة ﴾ (٢) .

فشابهوا بهذا القول النّصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام : اتّحد ناسوته بلاهوته . الناسوت : هو الإنسان ، واللاهوت ، هو الإله . وكلّ ذلك باطل مردود ، واتّحاد العبد بالله تعالى مُحال .

---

(١) هذا بِدَوْره من الشّطح ، إذْ قال قائل : سبحاني ما أعظم شأني ! .

(٢) آل عمران ١٧٦ .

وأمّـا من حفظه الله تعالى بالعناية الأزليّة إذا وصل إلى هذا المقام علم أنّ هذا غلبة نور الحقّ سبحانه على نور العبد ، واستتار نوره في نور الحقّ تعالى ، وليس اتّحاداً ولا حلولاً .

وسمّـوْا هـذا المقَام مَقام الجمع ، وجمع الجمع ، وعين الجمع ، لوجود القرب البليغ من الحقّ تعالى ، لا بالمكان ، بل بالقبول ورفع الحجاب وإظهار التّجلي في سرّه ، فإنّ مشرب خواص العباد إنّما هو من مشاهدة نور الحقّ سبحانه .

ومعنى الجمع على اصطلاحهم أن يشاهد الحقّ عند فعله بقلبه .

وجمـع الجمع : أنْ يشاهده بسرّه دائماً ، ويشاهد ما دونه ، وهو التمكين . وهذا المقام إنّما يتحقّق للعارف بأنْ ينظر في حال وجوده إلى نفسه ، فيراه كما كان في حـال العـدم ، ويعرف أنّ قدرة الله التي معه اليوم هي القدرة التي كانت في الأزل ، ويقـول : أنـا أسير القدرة الأزلية أرى اليوم نفسي كما كنت في الأزل ، فما كان لـه قبل الوجود اختيار ، فكذلك لا يكون له بعد الوجود اختيار فيَكِلُ أمره إلى الله تعالى . قال الله تعالى " ﴿ فاتّـخذْه وكيلاً ﴾ [1] . فلا يكون كما يريد هو ، بل يكون كما يُراد به ، وهذا مقام التّسْليم والرّضَى بما قضَى .

* * *

(١) المزمّل ٩

(٤٥)

فصــــل

لو كان العبد متحداً مع الله تعالى لكان ينبغي أنْ يكون عالماً بالذات ، كما أنّ الله عالمٌ بالذات ، فوجب أنْ يعلم جميع المعلومات ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّـــماء ، كما أنّ الله تعالى كذلك ، ويستحيل في العالم شيء لا يعلمه ، فإنّ الله تعالى بكل شيء عليم ، لا يَخفى عليه شيء .

ومـــن المعلـــوم ضرورة أنّ أمر العبد بخلاف ذلك ، وقد قال تعالى لخير خلقه صـــلى الله عليه وسلم : ﴿ قلْ ما كنت بدْعاً من الرُسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكـــم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مُرْساها ؟ قل إنّما علمها عند ربّي ﴾ (٢) ﴿ ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّني السوء ﴾ (٣) .

فهو الذي شرّفه الله تعالى بقوله : " لولاك لما خلْقتُ الأفلاك " (٤) .

ولـــماَ وَصَلَ صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى مقام لم يصل إليه أحدٌ قطّ من المخلوقات نادى إسرافيل وقال : يا محمّد حيٌ كذا . فوَقّفَه الله (على) العجز عن إتـــيان ثنائه . فقال : أوّلاً : أعوذ بعفوك من عقابك ، ثمّ عبّر عن صفة الفعل ، وقال ثانـــياً : أعوذ برضاك من سخطك ، فعبّر عن صفات الذات . وقال ثالثاً : أعوذ بك منك .

وتـــرقّى من تلك المقامات ، واعترف بالعجز عن إتيان ثنائه فقال : لا أحصي ثناءً عليك (٥) .

---

(١) الأحقاف ٩ .

(٢) و (٣) الأعراف ١٨٧ و ١٨٨ .

(٤) " قـــال الصّغاني : موضوع ، وأقول : لكن معناه صحيح " [كشف الخفاء ٢ / ٢٣٢ برقم ٢١٢٣] وهو في السلسلة الضعيفة ٢٨٢ وتذكرة الموضوعات ٨٦ والفوائد المجموعة ٣٢٦

(٥) مسلم : الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ٤٨٦ .

فهذه مقامات شريفة وكرامات منيفة ، وهي مع هذا مخصوصة بصفة الاثنينيّة من حيث الإضافة إلى صفة أنت وأنا فعبّر بالعواطف اللاهوتيّة ، حتى وصل بإيصاله إلى سرادقات الهويّة ، ونَطَق بكمال توحيدات الأحدية بقوله : " أنت كما أثنيت على نفسك " .

وإذا عَرَفْتَ ذلك في العلم فكذلك في القدرة ، فإن الله تعالى قادر على جميع المقدورات ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم ضرورة أنّه لم يقدر أحد من الأنبياء والأولياء على ذلك ، إذْ لو كان قادراً لعمل لنفسه كل ما شاء حيث شاء ، ويؤخرّ في أجله إذا أراد ذلك .

وكذلك السمع والبصر ، وجب أنْ يسمع كل المسموعات في السموات والأرضين وما تحت الثرى ، فإنّ الله لا يخفَى عليه شيء من المسموعات والمبصرات .

وكذلك وجب لمن يدّعي الاتّحاد أنْ يحيا حياة لا يموت أبداً ، كما أنّ الله حي لا يموت أبداً ، ومعلوم من أحوال النّاس خلاف ذلك .

* * *

(٤٦)

فصـــــل

من ليس لـــه قدم راسخة في المعقولات ربّما يغلط حين ينظر في مرآة أو مياهٍ لاح فـيها صـــورته ، فـيظن أنّ تلـك الصورة هي صورة وجهه في المرآة ، وليس كذلك [١] ، وينظر في المرآة ويرى وجهه في المرآة ، وهو لا يشكّ أنّ وجهه ما حلّ في المرآة ولا اتّحد بها .

كذلــك نــورُ الحقّ تعالى إذا تجلّى في مرآة قلب العبد عند صفائه ما حلّ في قلبه ، ولا اتّحدّ به .

وكذلــك المرآة المصقولة إذا حاذت جرم الشمس ينطبع فيها نور الشمس لا محالة ، فلا يكون النور المنطبع فيها نفس الشمس .

فكذلــك نـــور الصفات والذات إذا ظهر في مرآة القلب ، فلا يكون نفس الصفات والذات ، قال الله تعالى : ﴿ فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً ﴾ [٢] فالحقّ جلّ جلاله حين تجلّى للجبل ما حلّ في الجبل ، وإنّما ظهر ، كما قلنا في مثال المرآة فافهم ، فإنّ الاتّحاد والحلول باطل مردود ، شرعاً وعقلاً وعُرْفاً .

---

(١) صـــورة وجهـــه (هنا) ماهيّته ، ونوعه . قال : " وليس كذلك " لأن الذي ظهر في المرآة أو المياه إنّما هو خيال وجهه ، لا وجهه نفسه ، فوجهه الحقيقي يبقى في رأسه ، لا ينفك عنه لدى نظره في المرآة أو المياه .

(٢) الأعراف ١٤٣ .

(مسألة)

قد يُذكر الاتّحاد بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات [1] ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة ، وفناء الشكّ وبقاء اليقين وفناء الغفلة وبقاء الذّكر .

* * *

(١) المخالفات : ماخالف الشريعة الغرّاء . والموافقات : ماوافقها من الطاعات .

(٤٧)

فصـــــل

قـــول مَنْ قال : سبحاني ما أعظم شأني ، لا إله إلا أنا فاعبدني . يُحْمَلُ على الحكاية .

وكذلك قول مَنْ قال : أنا الحقّ ، أنا الله : محمول على الحكاية .

ولا يُظـــنّ بهـــؤلاء العارفين الحلول والاتّحاد ، لأنّ ذلك غير مظنون بعاقل ، فضلاً عن المتميّزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات .

وقـــال بعضهم : معنى قول أبي يزيد رحمه الله إنْ صحّ عنه : سبحاني ما أعظم شأني ، كقوله رحماني وربّاني وسُلْطاني إضافة إلى نفسه .

وما أعظم شأني إذْ أنت سبحاني يعني : أنت لي ، وقيل : علوّ الهمة أجْرى على لســـان أبي يزيد " سبحاني " وعلى لسان غيره : (أنا الحقّ وأنا الله) تحقّقاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " تخلّقوا بأخلاق الله " (١) .

* * *

---

(١) في صحيح مسلم : صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل (٧٤٦) عن زرارة أن سعد بن هشـــام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله ، فقدم المدينة ، فأراد أنْ يبيع عقاراً له بها ، فيجعله في السِّـــلاح والكُـــراع . . (وفـــيه) " فقلـــتُ [الضمير يعود إلى سعد بن هشام] : يا أم المؤمـــنين ، أنبـــئيني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت ، ألستَ تقرأ القرآن ؟ قلـــت : بلى . قالتْ : فإنّ خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن " . والكُراع : اسم للخيل .

(٤٨)

فصــــل

في ذكر الحلول والدليل على بطلانه والرّدّ عليهم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله احتجب عن أهل السماء كما احتجـــب عن أهل الأرض ، واحتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وإنّه مـــا حـــلّ في شيء ، ولا غاب عن شيء ، وإنّ الملأ الأعلى يطلبون الله كما تطلبونه أنتم " (١) .

قـــولـــــه : " ما حلّ في شيء " لأنّ الحلول من خاصّية الأعراض . قوله : " ومـــا غاب عن شيء " إنّما قال ذلك كيلا يشتبه على السّامع ، فيظنّ أنه إذا لم يكنْ حالاً في الأجسام كان بعيداً عن عوالم الأجسام .

اعلمْ أنّ الحلول (باطل) ؛ لا يُتصوّر أن يُقال إنّ الدهر الرّبُّ (٢) ، تعالى الله عن ذلك . وذلك لأنّ المفهوم من الحلول أمران :

أحدهمـــا : النســـبة التي بين الجسم وبين المكان الذي يكون فيه ، وذلك لا يُتصوّر إلا بين جسمين ، فالرّبّ مبرّأ عن معنى الجسميّة ، يستحيل في حقّه مثل ذلك .

الـــثاني : النسبة التي بين العَرَض والجوهر ، فإن العَرَض قوامه بالجوهر ، فقد يعبّر عنه بأنّه حالّ فيه ، وذاك محال على كلّ ما قيامه بنفسه ، فلا يتصوّر الحلول بين عبدين ، فكيف يتصوّر بين العبد والرّبّ تعالى ؟

---

(١) إتحاف السّادة المتقين ٩ / ٥٩٧ . وانظر صحيح مسلم : الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ، وفي قوله حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، رقم ١٧٩ .

(٢) انظـــر حديـــث : " يؤذيـــني ابن آدم يسبّ الدّهر ، وأنا الدهر . . " متّفق عليه [الإتحافات السّنية ٢٠٦] أنا الدهر : مدبره .

فـإذاً بطـل الاتّحاد والحلول ، لأنّ المعقول من الحلول إحاطة المحلّ بالحالّ ، كإحاطـة الظرف بالمظروف ، فَبَطَلَ قول النّصارى :إن اللاهوت حلّ في النّاس ، يعني بطل قولهم بحلول الله تعالى في جسد عيسى عليه السلام ، إذ لو فرض حلول اللاهوت في هيكل المسيح لكان جسد المسيح أكبر ممّا حلّ فيه ، فيكون الجسد البشري أكبر من الذات الإلهية ، وإنّه محالٌ ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

(٤٩)

فصـــل

وأمـــا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تخلّقوا بأخلاق الله " فمعناه اتّصفوا بالصـــفات المحمـــودة أو تنـــزّهوا عن الصفات المذمومة ، وليس معناه أنْ نأخذ من صفات القِدَم شيئاً .

مـــثال ذلك كمن يأخذ سراجاً من سراج آخر ، ويأخذ علماً من علم آخر ، لايأخذ مِنْ عين سراجه وعين علمه ، بل يحصل له من إشراق سراجه سراجٌ آخر ومن إضـــافة علمه عِلْمٌ آخر ، فإنّ صفات الله تعالى قديمة ، لا تصير صفةً لغيره لاستحالة كـــون القـــديم صـــفة لحـــادث ، ولا يُظنّ بالعقلاء المتميّزين على أهل زمانهم بالعلم الـــراجح ، والعمـــل الصّـــالح ، والمجـــاهدة وحفظ حدود الشَّرْع ، الغَلَطُ بالحلول والاتّحاد ، مع كون الله تعالى منعهم بالتوفيق والرعاية ، كما غلط النصارى في ظنّهم اتّحاد اللاهوت بالناسوت في حقّ عيسى عليه السّلام .

* * *

وأمّا الخبر الإلهي : " كنت له سمعاً وبصراً . . " الحديث (١) فليس في هذا الخبر أنّ العـــبد متّحد بالله تعالى ، وأنّ الله تعالى يتّحد بالعبد ، أو يحل فيه ، بل معنى قوله : " كنت له سمعاً وبصراً " كقوله : كنت له خالقاً ورازقاً ، بي يتخلّق وبي يرتزق .

وهذا جواب كافٍ ، ولكنّ حقيقة الأمر في ذلك أنّ المراد من قوله : " كنت له سمعاً وبصراً " أي أتجلّى له بصفة سمعي وبصري ، فيتقوى بهذا التجلّي سَمْعه الباطن وبصـــره الظاهـــر ، فيسمع بهذا التجلّي ما لم يكن يسمع من قبل ، ويبصر ما لم يكن يبصر من قبل .

---

(١) الإتحافات السَّنِيّة بالأحاديث القدسيّة ، رقم ١٤٠ .

مثال ذلك رجلٌ صحيح الحاسّة في بيت مظلم ، وفيه أشياء لا يراها ، فلو أشعل مِشْعَلَةً رأى بضيائها الأشياء الحاضرة ثمّة . ولا شُبهةَ أنّه إنما يراها بضياء المِشْعلة ، ولا شبهةَ أنّ ضياء المشعلة لم يتّحد به ، ولم يَصِرْ جزءاً له ، وإنْ كان إنما يرى ما رأى بها .

وإيضاح ذلك أنّ نور الحق سبحانه إذا تجلّى على نور العبد استتر نور العبد في نور الحقّ تعالى ، كما يستتر نور الكواكب عند طلوع الشمس ، فيصير نور الحقّ غالباً ، ونور العبد مغلوباً ، فكان الحُكْمُ للغالب ﴿ والله غالبٌ على أمره ﴾ .

فحينئذ ما بقي للعبد تصرُّف بنفسه ، وإنّما تَصَرُّفُه بربّه تعالى ، لأنّ الله تعالى يصرف عنه دواعي الباطل ، ويزين له دواعي الحقّ ، و﴿ ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ، وكرّه إليكم الكفر والفُسوق والعصيان ﴾ [1] . وذلك داعية الباطل .

فحينئذ يعصمه من ارتكاب المعاصي ، ويحفظه من التّقْصيرات في الفرائض وحدود الشّرع ، وينكشف له جليّة الحقّ ، ويصير مستغرقاً به ، فإن هو نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله .

وإن نظر إلى توحيده فلا يرى غير الله وإنْ نظر إلى همّته فلا هِمّة له سواه ، فيكون كلّه مستغرقاً به مشاهدةً وهمّة .

وذلك مَنْ حصل له طهارة الظاهر والباطن ، وتهذيب الأخلاق ، وتذويب النفوس ، فتبيّن بذلك أنّ الرّبّ تعالى لا يتّحد بالعبد ، ولا يتّحد العبد بالرّبّ ، فافهمْ ، فإن الحلول والاتّحاد بُطلانُهما في الإسلام أظهر من الشمس ، لورود النصوص في القرآن بردّ ذلك قال الله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم ﴾ [2] .

* * *

---

(١) الحجرات :٧ .

(٢) المائدة ١٧ .

مسألة :

تفسير الحلول : نزول شيء في شيء آخر على وجه يلازمه ، كحلول الرّطوبة في الماء واليبوسة في النار ، أو كالبرودة في الماء ، والحرارة في النار ، فإنّ ذلك لمّا حلّ في ذلك الجرم يلازم محلّه على وجه ينتقّل بانتقال محلّه ، ويقف بوقوف محلّه ، وينعدم بانعدام محلّه .

* * *

(٥٠)

فصـــــل

إنّ الله تعالى محال في حقّه الحلول والجِوار والاتّصال بالمخلوق ، وعرفْنا ذلك بالقرآن والحديث وإجماع الأنبياء والأولياء عليهم السّلام .

واعـــلمْ أنّ الحلول إنّما حدث في الإسلام من واقعات جَهَلة المتصوّفة ، حيث رأوا الله في مناماتهم أقرب إليهم من حبل الوريد ، فظنّوا أنّه فيهم حالّ ، وليس ذلك حلـــولاً ، وإنّما هو وجدانك القرب كقرب ضياء الشّمع في البيت من هواء البيت ، ولـــيس ذلك حلولاً ، بدليل أنّه لا يلازمه على وجه ينقلب مع محلّه ، وينْعدم بانعدام محلّه ، ألا ترى أنّ الهواء يخرج من باب البيت وكُوّاته ، ولا يخرج الضياء معه ، وينعدم الضـــياء الذي كان معه في البيت إذا انطفأ السراج ، ولا ينعدم الهواء في البيت فدلّ على أنّ الضياء غير حالّ في ذلك الهواء في مسألتنا .

وقـــد يفكّـــر السّالك في (طاعة) النفس والهوى ، فيرى في المنام والحال أنّه الرّبّ ، فتكون الرؤيا صحيحة محتاجة إلى التأويل والتعريف والتّعبير (١) .

. . . (٢) فيجـــب عليه أن يتجنب طاعة النفس والهوى ، ويكسرها بالمجاهدة والرياضة ، ولا يظنّ ذلك المحال وبالله التّوفيق .

* * *

---

(١) " حُكِيَ أنّ الإمام أحمد رحمه الله رأى المولى سبحانه وتعالى في المنام تسعاً وتسعين مرّة ، وقال : وعـــزّته إنْ رأيـــته تمـــام المـــئة لأسألنه . فرآه فقال : سيدي ومولاي ، ما أقرب ما يتقرّب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامي قال: بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : يا أحمد بفهم وبغير فهم " [بكـــري رجب : هداية المريد إلى جوهرة التوحيد (دار الخير) ٧١] . وهذه الرؤية ليست كـــرؤية بعضـــنا بعضـــاً ، فهي ليست بكيفية من كيفيات الحوادث من مُقابلة وَجِهَة وتحيُّز ، ولاانحصار للمرئي عند الرائي بحيث يحيط به ، لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى .

(٢) في الأصل عبارات مضطربة .

تمّ الكتاب
بعون الله تعالى

الفهرس

المحتوى	الصفحة
مقدّمة للشارح	٥
مقدمة المؤلّف	٨
(١) فصل : الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار	٩
(٢) فصل : حديث الخضر عليه السلام : يا موسى إني على علم من علم الله . . " .	٩
(٣) فصل : حديث " أن تعبد الله كأنك تراه . . "	١١
(٤) فصل : حديث " إنّ من العلم كهيئة المكنون . . " .	١٢
شاهد للحديث السابق " العلم علمان . . " .	١٣
حديث " طلب الحقّ غُرْبة "	١٤
العلماء ثلاثة	١٥
(٥) فصل : الطعن في سند " سألت جبريل عن علم الباطن ."	١٦
(٦) فصل : حديث " لكل آية ظهر وبطن "	١٧
(٧) فصل : من طلائع الصوفيّة ، بعد عصر الصحابة .	١٨
(٨) فصل : من كلام الإمام علي رضي الله عنه .	٢٠
(٩) فصل : سلسلة طريق التّصوّف	٢٢
(١٠) فصل : دليل خِرْقة المتصوّف	٢٣

الصفحة	المحتوى
٢٥	(١١) فصل : أنواع العلوم عند السجستاني
٢٦	(١٢) فصل : ما أفاده الشّافعي من الصوفيّة
٢٧	(١٣) فصل : تعريفات بالصوفيّة والطّريقة
٢٩	تربية المريد
٢٩	إظهار الكرامة لفائدة دينيَّة (كرامة لأبي بكر رضي الله عنه)
٣٠	من كرامات عمر رضي الله عنه .
٣٠	مما يجب على الشيخ .
٣٠	للصوفيّة ألفاظ أو مصطلحات خاصّة
٣٠	بين الصوفيّة والفقهاء .
٣٤	(١٤) فصل : الموارد الماليّة للصوفيّة (الاحتراف) .
٣٥	(١٥) فصل : من مقاصد القرآن التعريف بمنازل الطريق
٣٥	(١٦) فصل الإشارة إلى الفِرَق المنحرفة (في سورة الفاتحة) .
٣٦	(١٧) فصل : مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث " إنه ليُغان على قلبي
٣٨	(١٨) فصل : علامات صحة الإيمان ، حديث حارثة رضي الله عنه

الصفحة	المحتوى
٣٩	(١٩) فصل : علاقة التصوّف بالفقه
٤١	(٢٠) فصل : تبجيل الشاذلي للغزالي والمكي والترمذي
٤٢	(٢١) فصل : المفاضلة بين العلماء والأولياء
٤٩	(٢٢) فصل : مراتب أهل العلم
٥٢	(٢٣) فصل : الصوفيّة بين أهلها ومدّعيها (للكلاباذي)
٥٤	(٢٤) فصل : الصوفيّة بين أهلها ومدّعيها (لأبي نعيم) .
٥٦	(٢٥) فصل : من كتاب " اقتداء الغافل باهتداء العاقل " للقسطلاني
٥٦	التصوّف الشرعي
٥٩	أصناف الدّعاة
٦١	أعداء التصوّف
٦٣	انتقاد صوفي ذاتيّ
٦٤	أنواع العلم
٦٥	أحكام النّفس
٦٩	التصوّف والفقر
٧١	ذمّ الطرق المنحرفة
٧٤	(٢٦) فصل : غرور فريق من المتصوّفة (للغزالي) .

الصفحة	المحتوى
٧٧	مدّعو التصوّف
٨٠	رفع الهمّة (الهمّة العالية) لابن عطاء الله السكندري من كتابه " لطائف المنن " في مناقب الشيخين أبي العباس المُرْسي وأبي الحسن الشاذلي .
٨٣	الولاية الظّاهرة والولاية المستورة
٨٥	(٢٧) فصل : العقيدة التي أجمع عليها الصوفيّة الشرعيون .
٨٧	(٢٨) فصل : صفات الأفعال
٨٨	(٢٩) فصل : رؤية المؤمنين لربّ العالمين جلّ جلاله في الآخرة
٨٩	(٣٠) فصل : في نعوت الصوفيّة
٩١	(٣١) فصل : سلسلة الطريقة الشاذلية
٩١	ولاية الخِرْقة وولاية الاختصاص
٩٢	(٣٢) فصل : أوّل الأقطاب
٩٣	(٣٣) فصل : لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حَسَنياً .
٩٤	(٣٤) فصل : العلاقة بين المورث والوارث .
٩٥	(٣٥) فصل : الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الدخلاء على الصوفيّة ،وهي أربعة :
٩٥	الأوّل : إنكار القول بالحلول والاتّحاد .

الصفحة	المحتوى
١٢٤	الثاني : القول بالإباحة .
١٢٥	الثالث : القول بوحدة الوجود .
١٢٧	الرابع : الاعتماد على كل خاطر .
١٣٢	تذنيب : الردّ على من قال بإيمان فرعون ، وتكفيره .
١٣٤	(٣٦) فصل : تكفير من يفضّل الولاية على النبوّة .
١٣٧	(٣٧) فصل : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة .
١٣٨	(٣٨) فصل : الاجتماع بالخضر عليه السلام .
١٣٩	(٣٩) فصل : كتاب الخبر الدالّ ، للسيوطي في الأبدال والنجباء والأوتاد والأقطاب .
١٣٩	(٤٠) فصل : قد يقع في كلام بعضهم ما يُوهم الجَبْر .
١٤٠	(٤١)فصل : قولهم في الروح .
١٤١	(٤٢) فصل : السّماع (الغناء)
١٤٩	(٤٣) فصل : السماع المحمود المقبول .
١٥٦	(٤٤) فصل : الدليل على بطلان الاتّحاد .
١٥٩	(٤٥) فصل : تفنيد دعوى الاتّحاد .
١٦١	(٤٦) فصل : تفنيد دعوى الاتّحاد .
١٦٣	(٤٧) فصل : أقوال تُحمل على الحكاية .

الصفحة	المحتوى
١٦٤	(٤٨) فصل : بطلان القول بالحلول .
١٦٦	(٤٩) فصل : خبر " تخلّقوا بأخلاق الله " .
١٦٩	(٥٠) فصل : رؤية الله عزّ وجلّ في المنام لا تعني الحلول .
١٧١	. . . . المُحتَوَى .